ما لم يذكره المنطق في الكتاب الأزرق

رحلة ابن الخراز



ما لم يذكره المنطق في الكتاب الأزرق

رحلة ابن الخراز

رواية

كريم معتوق

اسم الكتاب:

ما لم يذكره المنطق في الكتاب الأزرق ـ رحلة ابن الخراز.

المؤلف : كريم معتوق.

سنة الطباعة:2013.

كمية الطباعة:1000 نسخة.

الترقيم الدولي ISBN 978-9933-22-019-8.

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار مؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سورية ـ دمشق ـ جرمانا

هاتف: 0963 11 5627060

تلفاكس: 0963 11 5632860

ص. ب: 259 جرمانا

www.darrislan.com

ما لم يذكره المنطق في الكتاب الأزرق

كان من أغرب خلق اللّه، نذلاً كان، كالشيطان قد كان، وأشياء سوى الشيطان، ماكان من الإنس سوى بالاسم، ماكان سوى الاسم الذي لا يُشتهى.
كان أبو شديد يتباهى بأنه يحمل اسما لطبعه أو لقباً ينطبق عليه، فهو شديد التعامل مع المرأة والأطفال والأصدقاء.

تزوج من فاطمة المحجبة الخلوقة والمحترمة بين كل من عرفها أيام الدراسة، وفي الحي الذي سكنت فيه، فاطمة ابنة الحاج محمود المشهود له بورعه وتقاه، تزوجها أبو شديد ليس لأنها ذات دين لكي تُترِب يداه، فقط لأنه راهن أصحابه بأنه يستطيع أن ينالها بأي طريقة، ولما لم تساعده دمامة وجهه الذي أكل منه الجدري أكثر مما أبقى له، ولم تساعده أخلاقه ورذالة طبعه، كان والد فاطمة على قناعة بأن بالفتاة ما إن يظهر شعر عانتها، يجب زواجها.

أشـهد أبـو شـديد أصـحابه الـذين رافقـوه منـذ سـنوات الدراسـة علـى عقـد زواجـه، تـزوج فاطمـة الراغبـة بالسـتر والأبنـاء والأسـرة السـعيدة، وبكـل مـا تعلمتـه في سـنوات دراستها من حصص التدبير المنزلـي في المدرسـة، ولما كـان الحـاج محمـود والـدها ممـن لا يـرى مكـانًـا في البيـت للبنـت الـتي تصـل إلى مرحلـة البلـوغ، وإن الـزواج خطوتهـا الواجبـة والزوج هو الأولى بكل خيرها وشرها، تم الزواج.

أنجبت فاطمة بعد تسعة أشهر ابنتها الأولى، وبعد الأربعين حبلت مرة ثانية، ولم تسمع طوال فترة الأربعين كلمة طيبة مـن زوجهـا أبـو شـديد، لم تكـن المـرأة الـتي تنجـب أنثـى بكـرًا لهـا مسـتحقة للاحـترام، حتـى إنـه أخفـى أمـر ولادة زوجته عن أصدقائه، عبد الحميـد الصـحفي المثقـف، ذلـك الـذي جعـل الثقافـة حقـلاً لطبيعتـه الوصـولية، والنفـاق الإعلامـي دربـاً لينـال بـه المناصـب في المؤسسـات الثقافيـة والصـحفية، ولا يبـالي بطعـن أحـدهم في الصـباح وامتداحـه في المسـاء، لقـد كانـت ضـالته الوشـاية والنميمـة الإعلاميـة ليرتفـع، وارتفـع ووصـل إلى منصـب رئـيس تحريـر في إحـدى الصحف، وصديقه الآخر حبيب، وارث الملايين، اكتشـف

فجـأة أنـه محـترم وأن النـاس تقـدره لمـال أبيـه المتراكـم، واكتشـف وهـو الغـبي في سـنوات الدراسـة أنـه يسـتطيع أن يجـد حـلاً للكـثير مـن المشـاكل بالمـال، في مجتمـع جعـل معيار الاحترام والتقدير هـو المـال، فالسـيارة الفارهـة تغـني عن الشهادة العليا، والساعة الذهب المطعمة بالألماس تجعـل الكثير ممن يحدثونه يصدقون كلامه، أو أنهم يصـادقون عليه دون أن يدققوا بصحة المعلومة التي يتحدث عنها.

وعبـد التـواب ذلـك الـذي أحـس بـاليتم مبكـراً و وجـد بالعبادة ما يهون عليه عوز الدنيا، ورأى أن مال الدنيا الـذي لا يملكـه زائـل، وأن الجنـة هـي مـا يريـد فجعـل العبـادة مظهـرًا وأحيانًـا جـوهرًا في حياتـه، وكـان الثـوب القصـير والذقن الطويل هـو مفتـاح المـرور لقلـوب البسـطاء، فكـثيرًا مـا يسـتوقفه أحـدهم دون أن يعرفـه ليسـأله بـأمر الـدين، ويطلب منه الكثير الفتوى بأمور حياتهم، فقـد امتلـك عبـد التـواب الـذي لم يكمـل دراسـته، شـاهدة التقـوى والـورع وحق تكفير الآخرين، بثوبه القصير وذقنه الطويلة، ورغـم طيبة قلبه فهو لم يطلب أن يكون بهذا الموقف، ولكنه مـا

إن اختار هذا الزي حتى منحه بركة الإفتاء، وحق إخراج من يشاء من الإسلام وإدخال من يشاء فيه.

وأخيراً لطفي، حيث استفاد من علاقات صهره بالعمل الدبلوماسي، فتم تعيينه في الخارجية و وجد أن كثرة القراءة وسيلة ناجحة للحديث مطولا حول موضوع معين دون أن يحدد موقفاً، كما هي الحال عند فرسان الكلام في العصور الوسطى، يتحدثون كثيراً ولا يعطون شيئاً.

هذه المجموعة لم تتفارق منذ سنوات الدراسة، أحب بعضهم البعض كمرحلة تالية لحب مصالحهم الشخصية ولا يشعرون بحرج من ذلك، فالصداقة تأتي بعد مصالح عبد الحميد المثقف، وحبيب التاجر، ولطفي السياسي، وعبد التواب المتدين الذي كان يرى أمور الله قبل أمور العبادة، وخامسهم أبو شديد صاحب العضلات المفتولة. ورغم صداقتهم، فقد أخفى أبو شديد عنهم خبر ولادة ابنته الأولى خجلاً منها، وكانوا يتجنبون فتح حديث معه ما قد يصادف مزاجاً عكراً عنده، فتثور ثورته التي يعرفونها عنه، فقد نال كل واحد منهم قسطاً من الضرب أيام الدراسة الابتدائية، كما نالوا حمايته لهم من أي اعتداء

من الآخرين عليهم، ولم يمنع ذلك أبو شديد من أن يمارس معهم فحولته، دون قدرة منهم لرده، فقد كان يقرر متى يشاء وأين يشاء، وكان الخوف منه ومن أهلهم كفيلاً بسكوتهم في تلك الفترة، وكانت المراحل اللاحقة من الدراسة امتداداً لصداقتهم، ولكن أبو شديد كان قد توقف عما أباحه لنفسه في سنوات الابتدائية الأولى للدراسة، حيث بدأت عضلاته بالبروز كانت تكثر الخناقات بينه وبين الطلبة في جميع المراحل، حتى تشعر بأن لكل طالب في المدرسة ثأراً عنده، أما أصحابه فقد غطى فضله بحمايته لهم، على أفعاله الأولى غير المحببة معهم.

دخلت فاطمة بنت الحاج محمود إلى غرفة الولادة مرة ثانية على أمل أن يرزقها الله بولد لتنال رضا زوجها المتجهم، والذي أحس بإهانة كبيرة لولادة الأنثى بكراً له، فقد تلقب بلقب أبو شديد طمعًا بولد يحمل اسم شديد ليؤكد شدته في كل الأمور حتى بخلفته.

رافق أبو شديد زوجته إلى غرفة الولادة، ولم يكن معهما إلا القابلة الأنيقة حورية، لقد قرأ اسمها المعلق على

القميص وأحس بالزهو لابتسامتها، حورية التي لم تقتصد بمستحضرات التجميل، وكأنها ذاهبة لحفلة أو سهرة، تتهيأ لمساعدة فاطمة على إنجاب مولودها الثاني، وأبو شديد لم يقتصد بإظهار مشاعر الإعجاب بها منذ الوهلة الأولى، ولم يجد حرجًا من فاطمة التي ملأت الغرفة بصراخ آلام الطلق، وكأن أمر ولادة فاطمة لا يعنيه إلا بعد أن يرى الولد، وربما بعد ذلك أيضًا، فليس هو الذي يضع للمرأة قدراً، أمام أبو شديد غاية واحدة في هذه الغرفة المغلقة، أن يتعرف على حورية القابلة، التي لم تترك مساحة من وجهها إلا ومرت عليها الألوان، ما يجعلها سهلة المنال كما يظن أي واحد يراها، فقد كانت تقول لها أمها خذي زينتك بكل موقف، فلا تعلمين يا ابنتي متى يأتي النصيب، ومنذ تلك النصيحة وحورية لا تخرج لأي مكان إلا بكامل زينتها، ورغم ذلك فلم يأت النصيب بعد.

إن حالة الولادة لم تعد تشكل حالة إدهاش عند حورية لتعودها على ذلك، ولا عند أبو شديد، فقد حضر ولادة طفلته الأولى، وشعر بالاشمئزاز من زوجته بعد أن شاهد المياه تخرج كنافورة صغيرة وعرف فيما بعد بأنها تسمى

مـاء الـرأس، وشـاهد الحبـل السـري المجـدول بلونـه الأزرق وتلك الروائح والصراخ جعلت تلك المشـاهد في ولادة فاطمـة الأولى أبـو شـديد أقسـى علـى زوجتـه وكـأن لهـا اختيـاراً بـذلك، وأن الصـراخ لم يكـن واجبـاً، ورغـم أن القـرارات يمكن التراجع عنها، إلا أن قرار الولادة لا يمكن التراجع عنه عند فاطمة.

كانـت فاطمـة في حالـة صـراخ وعـرق وروائـح الـولادة، وكانـت حوريـة بعطرهـا وملابسـها الأنيقـة، وابتسـامتها الجذابة، فلم تكن المبارزة عادلة، وكان أبو شديد يرغب بتلك المقارنـة، وحين مالـت كفـة حوريـة، زاد اهتمامـه بهـا وصـار يسـألها عـن أشـياء كـثيرة وبعيـدة عـن آلام فاطمـة المهملة والمنشغلة بقبضـات الطلق المتلاحقـة، وحوريـة تعـرف أن عملها يبدأ حين يتسع الرحم الذي تراقبه عن بعد.

فاطمة أحوج ما تكون في هذه الساعة إلى دعاء الزوج هذا مـا تعلمتـه، والـزوج منشـغل بسـرد حكايـا طريفـة لحوريـة ليثير انتباهها، وقد أثـار اهتمامهـا وتواعـدا علـى أن تحادثـه في أقـرب فرصـة، فقـد يكـون زوجًـا مناسـبًا لحوريـة وهـي الـتي تجـاوزت عمـر فاطمـة ولم تتـزوج، وشـهدت ولادات

كثيرة وتتمنى أن يشهد الآخرون ولادتها ، هي ليست أماً لمن ساعدت بولادتهم وتريد أن تكون أماً ، وها هو أبو شديد يعلن عن اهتمامه في وقت ولادة زوجته لابد أنه جاد ، فهذه المشاعر لا تخرج عبثاً في مثل هذه اللحظة ، قالت حورية لنفسها ، فمن غير المعقول أن يبدي رجل اهتمامه بامرأة في مثل هذا الظرف ولا يكون جادًا ، لا بد أن يكون جادًا ، ونصيبها الذي قالت لها والدتها عنه ربما يكون قد جاء في هذه الغرفة التي ما تعودت إلا أن ترى فيها زوجاً منشغلاً بزوجته، ولن تثيره أي امرأة في الوجود ، لم تتعود حورية أن تجد إعجابا من رجل في غرفة الولادة وها هي تجد اهتماماً كبيراً من أبو شديد.

تراقب فاطمة حقارة زوجها وتكتم، إلى أن تذكرت أن دعاء المرأة الحامل في ساعة الطلق والولادة مستجاب، فسالت الله أن لا يوفق زوجها في حياته، وأن يقلب شدته ضعفاً ، وسطوته استكانة ودعة حتى يصبح أضحوكة بين الناس مثلما جعلها أضحوكة وهي في وضع الولادة ، وأن لا يقيم له أحد قدراً ، فقد لمحته وهو يعطي رقم هاتفه لحورية ، ويرجوها أن تحدثه فور انتهاء عملها ، ومما قالته

فاطمة وهو يلاطف حورية القابلة في المشفى: ضيع الله كرامتك كما ضيعت كرامتي.

مرت دقائق الولادة طويلة ومؤلمة على فاطمة وكانت قصيرة وممتعة على زوجها، وانتهت اللحظات الربانية بولادة طفلة ثانية منحت الفرحة لأمها والكآبة لوالدها لولا فرحته بمعرفة حورية، وإحساسه بأنها لا تمانع بمعرفته وهو القبيح الذميم خلقاً وخُلقاً.

وفي الأيام التالية كان أبو شديد يأتي كل يوم للمستشفى لزيارة حورية في قسم التوليد بينما زوجته في جناح الأطفال ولم يجد حرجاً بذلك، فقد نهاها أن تلد أنثى له، ولكنها لم تستمع لكلامه، ولم تنفذ أوامره حسب اعتقاده، وهاهي تعاقب بالإهمال واللامبالاة على ولادة أنثى ثانية له.

هو إذن أحمد خليل الملقب بـ: "أبو شديد"، ضخم البنية، وشديد المزاج وأرعن في سلوكه مع المدرسين والطلاب؛ لهذا أطلق عليه أصحابه لقب أبو شديد، وكان لطفي دبلوماسيًّا مع الجميع قبل أن يصبح الدبلوماسي في الخارجية فأطلقوا عليه لقب السياسي، فيما كان عبد الحميد مهتماً بالثقافة وكتابة القصة القصيرة فأطلقوا

عليه لقب المثقف وذلك قبل أن يعمل في الصحافة، أما حبيب الغني الوارث منذ صغره فنال لقب التاجر، أما عبد الرب اليتيم المتدين فقد استحسن لقب مولانا من أصحابه وكان من النادر أن ينادي الأصحاب بعضهم بأسمائهم وكانت الألقاب تغني عن ذلك، أبو شديد، الغني، المثقف، الدبلوماسي، مولانا الشيخ.

بدأت علاقة أبو شديد وحورية تأخذ منحى جدياً، والأصدقاء كانوا على اطلاع بكل التفاصيل، ولم تكن نصائحهم له إلا من خلال تكوينهم، فالسياسي ينصحه بضرورة معرفة الأهداف المستقبلية من أجل تنمية العلاقات النفعية، أما مولانا فمرجعه الآيات والأحاديث التي تدعو إلى الابتعاد عن الفحشاء والمنكر، ولا ضير بالزواج مرة أخرى فهذا من الشرع، أما المثقف فكان ذخيرة أبو شديد حين يزوده بأبيات الشعر الغزلية ليقرأها لحورية، والغني يعتبر كل النفسيات قابلة للشراء ويوصي دائماً صاحبه أبو شديد بالإكثار من الهدايا لأنها تبهر المرأة، فلا ترفض أي شيء بعد ذلك.

لقد كانت هذه هي توليفة أصدقائه، حتى أنه يعرف صاحبه من عباراته، وذلك منذ أيام الدراسة، وبينهم يقف أبو شديد صاحب العضلات يحسب له الجميع ألف حساب، ويحاذرون غضبه وسطوته.

مرت السنة، استدارت، واستدار الحب في قلب أبو شديد وحورية، واستدار الحزن واستكمل دورته في صدر فاطمة لما عرفت بخطبة أبو شديد لحورية، وفي غفلة من الأقدار تنقلب السيارة على الطريق بين شتوره والبقاع، وتنجو حورية إلا من بعض الرضوض، ويدخل أبو شديد في غيبوبة لمدة عشرة أيام.

هذه هي طبيعة الأقدار، تأتي حين لا يكون هناك استعداد لها، إنها صنو المباغتة، وربما تكون الاستجابة لدعاء فاطمة وهي في غرفة التوليد، قد تمت المصادقة عليها، فقد خرج أبو شديد من غيبوبته بخسائر شتى، فقد حاسة الشم ولم يعد لطبيعته السابقة بعد إصابة مباشرة في الرأس، صوته تغير صار أقرب إلى صوت الطفل نظرته لم تعد تحمل الشرر، وكأن دمعة خافية فيها، شخصيته أصبحت سهلة الانقياد، كل ما يقال له يصدقه، يتلفت لا

إرادياً كالخائف، وكأنه يبحث عن رضى الجميع من حوله بعد أن كان لا يعنيه رضى أحد.

كان اللقاء الأول بين حورية وأصدقاء أبو شديد في غرفة العناية المركزة، وطوال عشرة أيام يتجاذب الأصدقاء الحديث مع خطيبة صديقهم حورية، الحريصة على سلامة أبو شديد لتتم مراسم الزواج الذي تأجل فجأة.

لم يكن فقد حاسة الشم هي الخسارة الأبرز، حيث اكتشف الجميع أن أبو شديد لم يعد ذلك الرجل الشرس الأرعن، ها هو رجل بلا حالة الاعتراض التي يتقنها ويتفنن فيها، حتى أن حورية استحسنت هذا التغيير فيه، ولم تجد فيها خسارة كما كان يراها أصدقاؤه، فالشدة والشراسة هي أبو شديد، فكيف يكون كذلك إن لم يكن كما كان.

فقد أبو شديد عمله كحارس في الجمارك، فالتف الأصدقاء حوله كما يلتف الإخوة حول رجل ليس له غيرهم، وكانت فاطمة هي الغائب الوحيد عن الشمل الذي يجمعه بأصدقائه وخطيبته حورية، وبعد خروجه من المستشفى مباشرة، قام الأصدقاء باستئجار شقة له

بمنطقة الحدث، تتكون من غرفة نوم واحدة بحمامها، وصالة واسعة ومطبخ صغير، ووجدوا له عملاً في منطقة النورمندي في بيروت، حيث مكب نفايات المدينة التي لا تجد من يقبل العمل بها لشدة روائحها الكريهة، ولكن ذلك الأمر لا يعني شيئاً بالنسبة لرجل فقد حاسة الشم، فباشر عمله بمقلب النفايات في النورمندي، استعداداً لاستكمال زواجه من حورية، حيث بدأ الأصدقاء يلحون عليه بسرعة إتمامه، حباً بصديقهم وإعجابا كبيراً بحورية و وقفتها معه، وكي يجد أبو شديد من يرعاه.

وأثناء عمله اليومي عثر أبو شديد على مخطوطة كتاب قديم، الباقي منه أكثر من التالف، فعزله عن الحريق اليومي وحمله معه إلى شقته الصغيرة، كان عنوان الكتاب "ما لم يذكره المنطق في الكتاب الأزرق" وتحت هذا العنوان الكبير عنوان صغير يبدو أنه مكمل للسابق "رحلة ابن الخراز"، أما اسم المؤلف فقد كان تالفاً، وكل ما أمكنه قراءته هو ابن صريع وشيء كالحافظ أو الرافظ، لم يستطع أبو شديد أن يتبين الاسم أو سنة

كتابته، ولم يكن يهمه ذلك، ولكنه تيقن من كلمة منقول، ولم يعرف منقول ممن، أو عمن.

قرأ أبو شديد الكتاب في ليلة كاملة وأعجب كثيراً بحياة ورحلة ابن الخراز، وأخبر أصدقاءه عنه ليقرؤوه، ولكنهم لم يكترثوا له، وبعد أيام أقام الأصدقاء له حفلة صغيرة حضرها أصدقاء أبو شديد، وأهل حورية وقد تشجع الجميع للحفلة بمن فيهم حورية، والتي تنازلت عن مطالب أي بنت تقرر الزواج، من حفلة كبيرة ولوازمها، فقرار إقامة حفلة الزواج المصغرة كان يلاحق وقت الجميع.

كان حفل الزواج في أحد المطاعم البيروتية، حضره أصدقاؤه، المثقف والسياسي والغني ومولانا، وبعد أن انصرف الجميع، أصر أبو شديد على أصدقائه أن يرافقوه إلى شقته لتكملة السهرة معه، وحاولوا الاعتذار لأنها ليلته الأولى، ولكنه أصر عليهم، وأنه سيسعده حضورهم أكثر من انصرافهم عنه، وبعد أن انصرف والدا وأقرباء حورية ذهب الأصدقاء مع الزوجين، وفي الشقة جلس الزوجان والأصدقاء والليل في أوله لتكملة السهرة، وجلس

الأصدقاء يتجاذبون أحاديث الطفولة وأيام الدراسة، ودارت أغلب القصص حول أبو شديد والخناقات التي كان يقوم بها، وحورية في ثوب زفافها لم تزل، وحين سألوا أبو شديد عن طبيعة عمله الجديد في النفايات، أخبرهم بأنه أهم من عمله في الجمارك، وأنه عمل غير ممل ويراه مثيراً في بعض الأحيان، لأنه يشاهد كل يوم أشياء مختلفة مما يلقيه الناس في النفايات، فقال حبيب الغني:

ـ أين الاثارة في المخلفات يا أبو شديد؟

فقال أبو شديد: لحظة من فضلكم، وقام إلى زاوية الصالة حيث مجموعة من الكراتين، وبعد ثوانٍ أحضر معه كتاباً قديماً، أقرب ما يكون إلى المخطوطات، فعرضه عليهم قائلاً:

ـ هذا الكتاب وجدته في النفايات، وهو رواية جميلة قرأتها بليلة واحدة ومازالت أحداثها برأسي، عنوانها "رحلة ابن الخراز"، وبعنوان جانبي "ما لم يذكره المنطق في الكتاب الأزرق"، وقد عرضتها عليكم ولكنكم لم تقرأوها.

فقال مولانا: نعم أخبرتنا بها وعرضتها علينا للقراءة، ولكن مشاغل الحياة كثيرة.

فتناولها الجميع حيث دارت عليهم في حلقة بمرور سريع، فقالت حورية، ومن هو ابن الخراز؟ فقال حبيب نعم ومن هو ابن الخراز؟ فقال أبو شديد:

هل تريدون أن تعرفوا من هو ابن الخراز؟

فقالوا: نعم من هو؟

فعرض عليهم أبو شديد أن يقرأ القصة عليهم جميعاً هذه الليلة، وستكون سهرة مميزة حسب اعتقاده، فما زال الليل بأوله، فقال المثقف عبد الحميد أنا أحب ذلك ولكننا نخشى أن نكون ثقالاً عليك أنت وحورية في ليلتكم الأولى، فقالت حورية: لا عليكم، ما دام هذا الأمر يسعد أبو شديد فإنه سيسعدني، فقال أبو شديد: إنه يسعدني جداً، وأعلم بأنه سيسعدكم جميعا أيضاً.

فلم يرفض الأصدقاء طلبه بقراءتها لهم، بمن فيهم حورية التي لم تكن تريد أن ترفض طلباً لزوجها المسالم في ليلة عرسه، وبدأ أبو شديد بصوته الجهوري بالقراءة، رحلة ابن الخراز الفصل الأول.

رحلة ابن الخراز

الفصل الأول

كانت السنة اكتمال القحط، كانت دورة الأفلاك تأخذ ما تشاء من الحياة، والأرض تطعم ما تشاء إلى الممات.

قالوا عنه حينما صاحت الداية "إنه ولد"، إن العرب عرفت الصدى أول مرةٍ، حين ترددت كلمة ولد.

قالت أنثى حامل إن كان ما في بطني أنثى فإنني أهبها له.

قيل لما دخل التاريخ لم يكتبه، أو تناساه على عمد أو ربما تحدث في سريرته "إن هذا ليس زمن ابن الخراز" حتى الحوذي تعرف على صرخته وقال سيصرخها كثيرًا، ويصرخها أخيرًا.

كان ابن الخراز هو الابن الحقيقي للصحراء العربية، فإذا تحدث لا تعرف له مدى ولا تعرف له مسلكًا، كان جافاً، صامتاً حين ترتجي من الحديث، ومزمجراً كلما تمنيت له الاستكانة، ودائماً ما يكون هادئاً في الليل،

وحين يبدأ حديث النجوم تجده يحترف الإصغاء لمن لا يتقن الكلام، هكذا كان ابن الخراز أو ابن الصحراء سيان في صباه. ولد لأم لم تحدد المصادر التاريخية نسبها، ومتى كانت المرأة من اهتمامات التاريخ؟ حين لايرتبط ذكرها برجل، هكذا كان التاريخ ذكورياً حتى بالاسم، وإن تساهل في بعض الأحايين لذكره سيرة امرأة من باب التشفي الأسطوري، أو ما يدعوه بغفلة من الوعي التأريخي للتاريخ.

قاطع عبد الحميد المثقف أبو شديد قائلاً: ياعزيزي هنا مغالطات تاريخية واسقاطات ليست من الواقع، فالمرأة كانت في سنوات الجاهلية أكثر عافية من السنوات التي تلتها وحاضرنا بكل أسف.

ـ مولانا عبد الرب: الإسلام هو الذي أعز المرأة وكرمها دون بقية الأديان والمعتقدات.

ـ حبيب الغني: كانت المرأة ولم تزل سلعة تقيم بالمال سواء في جاهليتنا أو في جاهلية الغرب، وبكل أسف في حضارتنا التابعة للغرب أيضاً، ولكن هناك دائماً من يقدرها حق قدرها.

ـ لطفي السياسي: للمرأة دور كبير في رسم ملامح التاريخ وهي من أسباب صراع الدول، ونجاح الدول وضياع الدول ونجاح أبو شديد.

ضحك الجميع من جملة لطفي الأخيرة فقالت حورية: اتركوا اجتهاداتكم فنحن في أول الليل وفي أول الرواية، أكمل يا أبو شديد.

كان والده الحر بن سهيل، كان رجلاً يباهي بصيته على ماله، وكان هذا شأن العرب آنذاك، وكان ماهراً بصنع الخواتم وبثقب الأحجار الكريمة وصنع العقود.

كان عازباً حين رآه الورداني يغتسل عارياً بعين الماء، فانتبه إلى ما عند الحر بن سهيل، فضحك بصوت عالٍ وقال له، لن تجد امرأة تحتمل ما عندك يا خراز، فأبحث لك من الآن عن أتان أو بغلة تحتملك.

ابتسم أصحاب أبو شديد وهم ينظرون إلى ردة فعل حورية، لقد كانت تجلس جوار أبو شديد فالعيون عليها والآذان لأبو شديد ولكن حورية كانت انفعالاتها طبيعية جداً،

ألم تكن قابلة ومر عليها ما لم يمر على غيرها؟ عاد أبو شديد إلى روايته الأثيرة، تستر ابن الخراز بعد أن سمع مزاح الورداني، وكان كعادته هادئًا، ولا يعرف من الضحك إلا الابتسامة، ولا يعرف بالمصائب إلا الصمت ولا يعرف من المواقف إلا الأفعال.

عاد الورداني إلى بيته باسما مما رأى، وكان متزوجاً من ابنة عمه والتي لم تسمع ضحكته طوال سنوات زواجها الثلاثة، فقد كان مما يعيب الرجل أن يضحك في بيته وبحضور زوجته، وابنة العم تمنح لطقس الرسمية في التعامل بعداً أكثر جدية والتزاماً بين الزوجين، حيث تقتصر الحياة على الاحتياجات فقط.

وفي ذلك اليوم لم يستطع الورداني أن يمنع نفسه من الضحك في بيته وبوجه زوجته، فكأنه قام بفعل فاحش، فطلبت منه زوجته أن تعرف سبب ضحكه، فحاول إنكار سبب ضحكه من الخراز وما شاهده اليوم منه، إلا أنها أصرت أن تعرف واعتبرت أنه يضحك منها، وأنه رأى عيباً

فيها فأصرت أن تعرف العيب الذي أضحكه، فلم يجد الورداني بداً أمام إلحاحها من إخبارها بما رأى من أمر الخراز، وأعاد لها ما قاله له (ابحث من الآن عن أتان أو بغلة تحتملك).

لم يكن سبب ضحك الورداني عابراً عند زوجته، وفي أول رحلة صيد خرج بها الورداني مع أصدقائه، وكانت تعرف أنه سيغيب لثلاثة أيام، ذهبت إلى الخراز ليصنع لها خاتماً، وحين اقتربت منه وبدأ يلف الخيط على إصبعها ليعرف مقاس إصبعها، كانت يدها الأخرى تحاول التأكد من سبب ضحك زوجها، فتأكدت من كلامه وعرفت أنه كان سبباً لضحك زوجها، ولكنه ليس بالضرورة سبباً لضحكها هي.

قضت ليلتها معه إلى الصباح، فعرض عليها الزواج بعد أن تطلق زوجها، فواكبت رغبته حلمها، وفي أقل من شهر كان طلاقها وزواجها من الحر بن سهيل الخراز.

لقد حصل الخراز على امرأة مكتملة، فلم يعد بحاجة لنصيحة الورداني، ولم يعد بحاجة للبحث عن أتان أو بغلة، إنه بحاجة إلى ولد يحمل اسمه ويعينه إن عثر في زمن لم يثبت فيه شيء غير العثرة وقسوة الحياة، وفي زمن لايعد إلا بالمجهول.

ومضى الورداني هائماً لاتفارق شفتيه مقولة عرفته بها العرب (أضعت زوجتي بضحكة).

قال مولانا عبد الرب مقاطعاً: ياسبحان الله وهل هذه من الأمور التي يحدث الرجل بها زوجته؟

فأجابه عبد الحميد المثقف: لم تكن أرواحهما منسجمة، وحين لايكون البناء الأسري مدعوماً بالتفاهم والمحبة ينكسر هذا البناء لأتفه الأسباب.

ـ لطفي السياسي: وهل ترى غاليتنا حورية أن ضحكة أبو شديد عيباً إذا ما رأته باسماً في البيت؟ وهل يعني للمرأة ما حدث مع زوجة الورداني؟

ـ حورية: اسأل أبو شديد هو يعرف كم أحب ضحكته التي فارقته منذ الحادث اللعين، وأهملت عامدة بقية سؤاله.

أحس حبيب الغني بخبث سؤال لطفي، فأراد تغيير اهتمام حورية بلطفي الذي كان يصطنع الحركات للفت انتباهها، فطلب من أبو شديد أن يكمل الرواية سائلاً ماذا حدث للخراز بعد ذلك؟

أبو شديد: حين تنتهي ملاحظات الأصدقاء، فقال الجميع: لقد انتهينا أكمل يا رجل، ولا تكن متشدداً هكذا دائماً.

فأكمل أبو شديد القراءة: لم يكن أحد يعرف القصة التي حدثت مع الورداني غير زوجته، التي بدت أكثر حيوية وحياة من ذي قبل، وما مر الحول عليها إلا وكان تحتها رضيع، كان الخراز يوم ولادته يراقب السماء، وحين بشرته القابلة بالصبي، رأى شهابًا في السماء، فاسماه شهاب، وعرفته الناس فيما بعد بابن الخراز.

لم يكن ينقص ابن الخراز شيء في صباه، لقد كان مكتفياً من الشجاعة والوسامة والقوة، إلا الدهاء فقد كان فائضاً عليه، أو كان أكثر من حاجته له في بيئة تتسع فيها مساحة الجوع والفراغ والرمال، ويشكل اللاشيء واللايوجد والمنظر حيزاً كبيراً من الحضور، وكانت النهايات أكثر من البدايات من حوله، فلكل شيء نهاية ولا توجد بدايات لأشياء كثيرة، لقد كان من الدهاء والذكاء ما يفوق حاجة إنسان يعيش في بيئة بسيطه تنحصر بين رأس عمود الخيمة علواً ومرمى الحجر بعداً، فلم تكن السماء وموجوداتها في التكوين العربي عند العرب في ذلك العهد.

ومما قاله ابن الخراز في صباه وتناقلته العرب واصفاً حاله ومعتداً بها:

لا عاصمَ اليومَ إلا الشعرَ يا قلمي

فاسرجْ أمانيك واسرجْ رائعَ النغمِ

أمامكَ الشعرُ فاحرقْ كل قافيةٍ

من خلف ظهرك لا تودي إلى القممِ

كنْ حانةَ الروحِ أرواحٌ تسامرها

واستنزلِ الأفقَ من عاليهِ للألمِ

واستئجرْ الوقتَ من سيفٍ يجاذبه

ذي خدعةُ السيفِ حولَ الوقتِ من قِدمِ

البحرُ يدعوك فابحرْ إنها سعةٌ

واضربْ عصاكَ يقومُ الماءُ كالهرم

ـ عبد الحميد: تعجبني تلك البيئة حيث الإبداع البكر والثقافة استكشافاً.

ـ مولانا: إنها الجاهلية بكل ما أخبرنا بها القرآن.

تدارك أبو شديد الحوارات التي قد تشتت الانتباه فأكمل .

عمل ابن الخراز بالتجارة وهي الحرفة الوحيدة المتوفرة غير مهنة البغاء، وقد أصبح ابن الخراز بعد فترةٍ بسيطةٍ من الأهمية عند التجار في رحلتهم إلى الشام وبين النهرين، حتى أنهم لا يقدمون على سفرهم حتى يتسنى لهم مرافقة

ابن الخراز لهم، فهو رغم حداثة سنه فقد كانت له الفطنة والمعرفة بأمور التجارة والدهاء الذي يحتاجه التاجر، مما يوفر للتجار أفضل الأسعار للشراء أو البيع، وأجود البضائع من خلال حضوره لموسم التجارة، ومناقشة التجار لأقرانهم في الشام وبين النهرين، فقد أتقن هذه الحرفة بسرعة كبيرة.

لم يكن ابن الخراز يتوانى عن الكذب والخداع في سبيل مصلحته، وهذا ما يخرجه من دائرة الأسطورة ويعمقه بخصوصية التجارة ومتعلقاتها.

ـ حبيب الغني: لقد أحببت هذا الرجل، التجارة هي الرابح في كل العصور .

ـ مولانا: وهل التجارة كذب وخداع، اسكت يارجل، أكمل يا أبو شديد.

ومما يذكره أهل نجد، ومما لا ينساه تجار الشام له أنه طلب من أحد التجار العرب شراء كل ما توفره العرب من الصوف، وحيث إن الصوف لم يكن مرغوباً به بكثرة في

الشام فقد تردد التاجر بالانصياع لطلبه، ولكنه وافق بعد أن أتعبه اصرار ابن الخراز على ذلك، فباعت العرب كل ما لديها من صوف للتاجر، وذهب بحمولة ستين جملاً من الصوف، وما إن وصل إلى الشام حتى استنكر عليه تجارها الكمية التي سوف تبخس سعر الصوف وقتها. فأمر ابن الخراز التاجر بعدم البيع، وبدأ بترويج إشاعة عند العسكر لأنه يعرف أنها ستصل إلى التجار، وهي أن الإمبراطور برانوس قرر بتكليف من القيصر أن يعيد تجهيز الجيوش بلباس جديد من الصوف العربي، وذلك لاحتماله ويلات الحرب والبرد، وأن الإمبراطور يريد شراء كل ما تنتجه العرب من الصوف لعشر سنوات.

عندها بدأت بعض التحرشات بالتاجر العربي، والذي لم يكن يعلم شيئاً ولكنه التزم بعدم البيع تنفيذاً لما قاله له ابن الخراز، فحيناً يأتونه من باب الشفقة عليه ورغبتهم بمساعدته، وحيناً من دهاليز رغبتهم بإقامة علاقة جديدة مع تاجر عربي، وفي كل مرة كانت الأسعار ترتفع قليلاً

مع ارتفاع حدة الإشاعة، إلى أن تجاوزت سعرها المعهود، والتاجر يرفض أن يبيع، والإشاعة وجدت أرضية صالحة للنمو بسرعة دون رقيب.

وبدأت العروض تنهال على التاجر بأسعار كبيرة، وانخفضت أسعار الأقمشة الأخرى وصار سعر الصوف بسعر الحرير، فأمر ابن الخراز التاجر ببيع الصوف وشراء الحرير بأسعاره الهزيلة، وعاد التاجر بالحرير لتلبس كل العرب في الجزيرة الحرير بسعر الصوف، وذابت يومها الاحتكاكات الطبيعية في الشراء، وكان ابن الخراز أول من خرج على الأعراف السائدة، والتي كانت تحكم الناس في العصر الذي سبق الإسلام بثلاثمائة سنة.

ـ عبد الحميد: وهل الأحداث هذه كانت قبل الإسلام بثلاثمائة سنة؟ كيف كان شكل الناس؟ شكل الحياة والكتابة آنذاك؟

ـ أبو شديد: هكذا يشير الراوي إلى الأحداث التي تناقلتها الناس دون أن يشير إلى العصر الذي كتب فيه المؤلف هذه الرواية.

ـ عبد الحميد: يا أبو شديد أنت هنا تكون قد كشفت عن أول رواية عربية في التاريخ، فجميع المصادر تشير إلى الروايات في بدايات القرن العشرين.

ـ حبيب: وهل التجارة كانت منذ تلك الفترة في الجزيرة؟

ـ لطفي: قل وهل الدبلوماسية كانت منذ تلك الفترة؟ فما يقوم به ابن الخراز هو من أساس عمل الدبلوماسية والعمل السياسي.

ـ مولانا: ألا ترون الحياة حياة جاهلية فلم العجب؟

ـ حورية: أبو شديد، وابتسمت بما يوحي إليه أكمل، فابتسم أبو شديد لها وبدأ القراءة.

بدأت الحكايا عن ابن الخراز تغزو الجزيرة رغم حداثة سنه، وقد ساهمت أسفاره الكثيرة في إضفاء بريق الأسطورة للمخيلة العربية، حتى أصبح مضرب الأمثال،

فهناك (حكمة ابن الخراز) حين يرون حكمة في الرأي، وهناك (دهاء ابن الخراز) حين يرون الدهاء من أحدهم، وهناك (خبث ابن الخراز) حين تريد وصف إنسان بالخبث، وكأنه كان عصر ابن الخراز.

وقد زار ابن الخراز بلاداً كثيرة، الروم وفارس والهند وقد استزاد من علوم تلك الشعوب ومن لغاتها التي أتقن بعضها، واستوقفته الديانات السائدة فيها والتي كانت أكثر إقناعاً مما كان يسود الجزيرة من حجارة ما مرت عليها يد فنان تحيلها أصناماً مبهرة أو تماثيل خالدة، وقد قال في ذلك:

لا دين في الصحراءِ لا دين على

أرض الجزيرة أو ثرى الغبراءِ

والناس كالقطعان إما قاتلٌ

بالشرِّ أو من أجل بئرِ الماءِ

فإذا أقمتَ لهم بيوت عبادةٍ

خضعوا إلى ما شئت من أسماء

وقد أحس بالضيق وساءه أن لا يكون لعرب الجزيرة ديانة توحدهم، أسوة بالشعوب الأخرى، وأحس بأنه قادر على ابتداع ديانة جديدة لأهل الجزيرة، معتمداً على الحكايات العربية والأسطورة، وهالة القداسة التي يفتقر إليها العوام من الناس، حيث كان الدين وقتها لا يعدو الإيمان بقوة خارجية تتحكم بمصير الإنسان، وتساعده للعيش بحياة أفضل، وتدفع عنه البلاء وقت الرضا حين يلتزم المرء بالتعاليم.

- مولانا: يا سبحان الله هكذا بسهولة يبتدع ديانة، ودون أن يكون للعقل دور فيها، فعلاً إنها جاهلية.

- عبد الحميد: وهل للعقل شأن كبير في الإيمان يا مولانا؟ وهل آمنت أنت بالعقل؟ أكمل يا أبو شديد.

وقد كان له ما أراد، وجمع بعض التعاليم من الهند ومن فارس، ومنح تعاليمه بعداً أسطورياً، وكانت القلوب

خصبة والعقول صافية، والخيال العربي الجامح يفتتن بكل ما يبهر، ويقدس الغيب وما يحمله المجهول.

تبعه في أفكاره مجموعة من العوام ومن النافذين، حيث كان أقرب لهم بطبيعة عمله بالتجارة سابقاً، وما إن يلتقي بمجموعة، حتى يجدها لينه طيعة، ما دام الحديث لا يرفع من شأن قبيلة على قبيلتهم، فالقبيلة هي الحد الفاصل بين ما يقبله الإنسان وما يرفضه.

وكان سلمة بن غيث من أكثر أعوانه وجاهة ودعماً له، وكان ذا جاه رفيع ومال منيع، ولديه من الطيبة ما له من المال والجاه، فأصبح ابن الخراز آمراً ناهياً بجميع أمور حياته، يعتمدان على بعضهما، سلمة بن غيث يبحث عن الأمن والرضا بما لديه، وراحة السريرة، وابن الخراز يمنحه ذلك، بما تحمله التعاليم الدينية من غذاء روحي، وسلام داخلي في النفس البشرية، وكان المال والسلطة ضالة ابن الخراز لتحقيق أحلامه في جزيرة العرب، وهما لدى صاحبه سلمة بن غيث، وأصبح من النادر أن يكون

أحدهما بمفرده، رغم الفارق الكبير في العمر بينهما، حيث أكمل ابن الخراز الثلاثين من عمره، وسلمة بن غيث تجاوز الخمسين.

لم تكن تعاليم ابن الخراز مكتوبة، وكان يرتجلها في كثير من الأحيان، وكلما دعته الحاجة إلى أمر قال به شيئاً، فحين سأله أحدهم وما اسم ديانتنا الجديدة؟ أجابه ابن الخراز وكأنها أمر واقع، إنها الخرازية وإنكم الخرازيون، وكل من يعين على قيام هذا الدين يكون (مستأثراً) وسلمة بن غيث أول المستأثرين من الخرازيين.

وكان يرمي إلى دعم سلمة بن غيث له على أمل بأن يقيم معبده وينشر أتباعه يبشرون به، وبالخرازية ديانة لجزيرة العرب، لا يدخلها إلا عربي.

ـ مولانا: الحمد لله على نعمة الإسلام، وأنه أنجانا من تعاليم وديانة هذا الآبق.

ـ لطفي: لو كنت يا مولانا بذاك العصر لكنت من المستأثرين المبشرين والداعين له، ولكان حبيب ممن

يدعمونه مادياً ليكون مستأثراً، بحثاً عن الشهرة ففي كل عصر تجد التاجر له غاية فيما يعطي.

ـ حورية: ولطفي يا مولانا؟

ـ مولانا: لكان سفير المستأثرين له، يذهب إلى أقاصي الأرض ليعقد اتفاقيات ثنائية لا تقدم أي شيء، خلاف الصور التلفزيونية والابتسامات المصطنعة.

ـ عبد الحميد: أظن يا أبو شديد أن تكمل الرواية كي لا يضيع منا النسق والخيال بتعليقات جوفاء عن حدث غابر لمستأثرين جدد.

لقد كان لسلمة بن غيث ثلاث بنات، أكبرهن هجرها زوجها والصغرى لم تزل طفلة، وأجملهن الوسطى وكانت تدعى الرقطاء، وكانت تصغر ابن الخراز بتسع سنوات، وكانت معجبة به وبكل ما يشكله ابن الخراز من فطنة وذكاء وحضور وإعجاب والدها به، وقد ساعد كثرة ترداده عليهم هذا الإعجاب وحديث والدها الدائم عنه،

وأحس ابن الخراز بأنها الأقرب إلى قلبه ونفسه دون أختيها.

وفي ذات صباح خرج سلمة بن غيث من البيت ليتابع أعمال تجارته، وترك ابن الخراز وحده وما إن شاهدته الرقطاء حتى اقتربت منه قائلة:

ـ نذرت لك شيئاً غالياً عندي سيكون لك دون كل العرب، وقبل أن يسألها بادرته: أريدك أن تنال عذريتي، أنا أحبك من زمن ولم أقو على الكتمان أكثر، أنا (أحبك وخلص).

فتجمد ابن الخراز وقال: حبك يكفيني الآن، وثقتك بي لها قدسية عالية عندي، ولكن أمامك وأمامي بعض الوقت، فقامت وطبعت على خده قبلة دون صوت، لم تكن قبلة بما عرفه الناس من القبل، لقد كانت نفساً عميقاً أخذته من خده، كأول نفس لمخنوق تنفس، وتبعتها شهقة من الصدر، كأول شهقة لغريق لامس الهواء.

طار الخيال بابن الخراز وأيقن قدره مع المرأة التي يريد، وتوقف عند كلمتها (أحبك وخلص)، هل هي نهاية لأي حوار يأتي بعدها؟

هل هي جواب قاطع لكل من يسألها لماذا أحببت ابن الخراز؟

فهي جميلة وعذبة وشهية وابنة صاحبه، وأدرك بأنه وصل إلى الثلاثين من العمر، ولم يفكر بالحب ولو لمرة واحدة، لقد كان جل تفكيره بالمجد والنجاح، وكانت كل أسفاره تحمله إلى تجارب شتى بالحياة، إلا تجربة الحب فلم يعثر عليها، ولم يسع لها يوماً ما، وكان يعلم بقرارة نفسه أن أعظم الحب هو الذي يفرض نفسه، أو ربما تفرضه امرأة على رجل، أو يفرضه رجل على امرأة، ويأتي دون مشورة ودون سعي من أحد، وهاهي الرقطاء قد فرضت عليه الحب بحد القلب، ودخلت قلبه عنوة منه ودون اختيار، بعد أن دخل قلبها بغفلة من مشاعره وعقله.

لقد كانت الرقطاء تصر على المرور أمامه والاقتراب منه كلما جاء إلى البيت، وكان ابن الخراز يتعمد زيارة سلمة في الوقت الذي لا يكون فيه، أو أنه سيغادر البيت ويتركه لوحده.

ومع مرور الأيام وكثرة زيارات ابن الخراز للرقطاء، سألته دون أن تنتظر جواباً منه: من أعلاك على قلبي؟

فقال لها: أنا أعليت نفسي على كل شيء إلا قلبك، أنت من أعلتني عليه، حتى أدركتُ بأنك في أي مكان ستكونين فلا بد أن الأمكنة ستغير من طبيعتها لنكون يوماً ما معاً، وأحبك وخلص مثلما تحبينني وخلص، وأنشد:

كنتِ هناك أم هنا

هناك شيءٌ بيننا

يقول أنت لي أنا

فقالت له: أنا أريدك يا رجل، ولو أحببتني ربع حبي لك سأكون أسعد امرأة على وجهة الأرض.

وكان يعرف أنها صادقة، وأن حبه لها لا يوازي حبها له، ولكنه كان يراهن على الأيام ليصل إلى أكثر مما طلبت من حب وتضحية، كانت مستعدة لتقديمها وقت يشاء.

ومع مرور الأسابيع والأشهر ازدادت مشاعر الحب بينهما، وخفت اهتمام ابن الخراز بالخرازية واتباعه، بعد أن كانت همه الشاغل، وفكره المتقد لا يفكر بشيء غير الخرازية، ورغبته بزيادة أتباعه فيها، فقد شغله حب الرقطاء واستولى على قلبه وعقله وتفكيره، فأصحبت الحاضرة الغائبة، والغائبة مكتملة الحضور، يرى بها ما يراه كل محب صادق بمحبوبته، من العفة والجمال والرقة والدلال والقسوة والإلهام.

تشجع الاثنان بعد تعدد لقاءاتهما، فكلما رأته قالت: لا تنس، فيجيبها: (أحبكِ وخلص)، وكانت كلما مرت من قربه توقفت، وفي إحدى المرات قال لها وهي تمر من أمامه:

لم هذا الصبحُ يقصيكِ ويدنيكِ إليْ

لم ساعات انتظاري

دائماً تبكي عليْ

لمَ أدنيكِ وأقصيكِ

ولا ألمسُ شيئًا في يديْ

ابتسمت الرقطاء بخجل، فمد يده ابن الخراز ليلمس جسدها أول مرة، وأصبحت بينهما عادة، كلما مرت توقفت، دون أن يلحظها أحد، لتأخذ يده متعتها الكاملة من كل التضاريس التي بدأت تتشكل لديها، وكان يتقن اللمس، وكانت تتقن المتعة من يده، منتظرة اليوم الذي تلتقي فيه بالسبب الذي أبطل زواج الورداني، وأراح والده من عناء البحث عن أتان أو بغلة تحتمله.

لم يغب عن الأخت الكبرى حب الرقطاء لابن الخراز، فقد فضحتهما عيونهما، وكانت الأخت الكبرى للرقطاء، تشعر بضجر الوحدة، فلم تكاشف أختها بمعرفتها بأمر حبها لابن الخزاز، لغاية في نفسها، وكانت تعاليم الخرازية التي ارتجلها ابن الخراز بشأن الزواج في أحد أحاديثه وتعاليمه، هو أن تحدده وتقرره المرأة، وأن

المرأة هـي الـتي تطلب الـزواج مـن الرجـل، وأن الرجـل الـذي يـرفض عـرض امـرأة عليـه بـالزواج يخـرج مـن (جماعـة الخرازيـة) تلـك الجماعـة الـتي بـدأت تتسـع دائـرة أتباعهـا، جامعـاً بهـا المعتقـدات والـديانات والأسـاطير مـن كـل بقـاع الأرض.

وحين أحست ابنة سلمة بـن غيـث الكـبرى، أن قلـب أختهـا الرقطـاء مـال إلى ابـن الخـراز، وكانـت تـرى بـأن أختهـا جميلة، وستجد من يتزوجهـا في أي وقت تشـاء، وأحبت أن تستأثر به لنفسـها، وتـرى بأنهـا الأولى بقائـد الجماعـة الـتي يمولهـا والـدها، ولـن يرفضـه زوجـاً لهـا، وهـي المـرأة الـتي جربـت الرجـل وهجرهـا، وهـي الـتي تشـعر بحاجتهـا إلى الرجـل أكثـر مـن الرقطـاء الـتي لم تجـرب، فقـد هجرهـا زوجها بعد أقل من سنة ، وتقيم مع والدها لأكثر مـن سـنة دون رجـل ، فقـد علاهـا الوقـت حتـى لم تكـن تـدري مسافات المسـاء إذا ابتـدى بالسـرد، و وسـادة بـاردة بقربهـا، مـن قبـل كانـت دافئـة، لـيس هنـاك مـن ليـلٍ أطـول مـن ليـل

امـرأة غادرهـا الـدفء الـذي كـان يقيهـا ، بـرد سـاعات المساء، وجنونٌ عابرٌ ينهش بالصدر إذا طاف اشتهاء.

ـ عبد الحميد المثقف: استمع يا حبيب إلى الشعر إلى اللغة.

ـ حبيب الغني: هناك لغة واحدة أفهمها ويفهمها الجميع.

ـ حورية: نعرفها

ـ مولانا: يا أخي المال ليس كل شيء في الحياة.

ـ لطفي: ما هو رأي أبو شديد؟

أبو شديد لم يشأ أن يدخل في حواراتهم الجانبية وأكمل القـراءة: هكـذا وبـلا مقـدمات، مسـتندة إلى المعلومـات الجميلة التي تعرفها عن الجماعة الخرازية حول الزواج، والـتي ينتمـي إليهـا والـدها سـلمة بـن غيـث، حيـث كـان يجلس مع ابن الخراز وجماعة من أتباعهم في فناء البيت، دخلت ابنة سلمة الكبرى وقالت بكل ثقة لابن الخراز: سـيدي ومخلصـي ابـن الخـراز إنـني أطلبـك للـزواج لنفسـي عملاً بما علمتنا، واقتداء بشريعتك التي لم يسبقك إليها

أحد ، فأنزل نور طلعتك على ظلمة روحي وانشلني مما أنا فيه من الوحدة والكآبة.

فانعقد لسانه ولم تسعفه فطنته وحنكته للتخلص من هذا المأزق، حيث اقتحمت أختها الرقطاء ذاكرته فجأة، فصرخ ابن الخراز دون وعي منه بما قد يترتب على ذلك:

لا.. لا.. مستحيل، وصمت مع صمت جميع من في البيت.

عندها تقلبت الوجوه، وساد الصمت، وكان الجالسون من أتباعه أكبر منه سناً وقد كانوا على قناعة بموافقته، فهو الذي أمرهم بذلك، وهاهو يتنصل من تعاليمه بعد أول تجربة له، فصرخ به بعضهم مستنكراً رفضه، فهي ابنة سلمة أول المستأثرين بالخرازية، وخرج البعض من المجلس، فلم يبق بعد فترة إلا وجوم ابن الخراز وصمت سلمة بن غيث، وحين حاول ابن الخراز أن يلملم ماحدث ويبادر بإعلان رغبته بالرقطاء، قاطعه سلمة بن غيث:

ـ كنت من عمر بناتي وتبعتك، وجعلت مالي وجاهي رهن أوامرك، وسالتني الكثير ولم أسألك شيئاً، وكنت عوناً

لك بما حملت لنا من علم كانت العرب في حاجته يوماً ، أما وإنك تسقط في أول موقف معارضاً دعوتك التي أتيتنا بها فحري بي أن أكون المبادر لرفض دعوتك، بعد أن رفضتها أنت في بيتي، هذا فراق بيني وبينك، ولا أعرف بأي وجه سوف تقبل أن تراني الناس بعد اليوم، فانت كمن شهر بي عامداً حين رفضت طلب ابنتي منك بالزواج، ولن يكون هناك حديث للناس إلا ما قمت به.

أطبقت الصدمة على ابن الخراز فلم يقل شيئاً ولم يكن سلمة قادراً على سماعه، وخلال نهار وليلة باع سلمة بن الغيث كل أملاكه وارتحل مع زوجته وبناته الثلاث إلى الشمال، حيث استقر في مدينة الحضر قرب تكريت بين نهري دجلة والفرات، وكانت تابعة لحكم الملك العربي الضيزن بن معاوية، واعتنق سلمة بن غيث المسيحية فيها، وألزم زوجته وبناته بها، وأصبحت لديه بعض المكانة بين أهلها بعد أن تبرع للكنيسة ببعض ماله، وعاود مهنة التجارة بعد أن أهملها منذ أن اتبع ابن الخراز، واندمج

بالمجتمع غير المتجانس حيث الروم من العسكر والعرب من التجار والمحاربين والرحّل، وحيث الديانات المتفاوتة بين اليهودية والمسيحية، وعلى القرب منهم المجوسية، هذا المزيج من الديانات والطبقات والأعراق يجعل أمر الاندماج سهلاً، فلا مكان للعصبية في هذه البقعة من الأرض.

الفصل الثاني

ويشير كتاب رحلة ابن الخراز في هذا الفصل، إلى أن ابن الخراز اعتزل أتباعه والناس والدنيا لمدة عام في جبال الساحل الغربي، يستجمع قواه التي انهارت في لحظة مواجهة مع القيم والمبادئ التي أعلى من شأنها، وجعلها عقيدة لأتباعه، وأرادها سائدة على كل العرب، ليتوج نفسه بعدها سلطاناً روحياً، ومتصرفاً في دقائق الأمور لأتباعه.

لم تكن لابن الخراز ملة قبل ذلك ولادين، وقد تقلب مع المعتقدات التي لم تكن تتبع الديانات المرسلة في تلك الفترة، وكان بدهائه وشخصيته يستطيع أن يغير معتقد أي شخص يقبل محاورته في شأن المعتقد، كل ما هنالك أنه يقبل بالحوار فقط، وكان ابن الخراز كفيلاً بجعله رافضاً للمعتقد الذي آمن به من قبل، وحيث إنه فطن

لاختلاف العقليات والمستوى الذهني لأبناء البادية عن ذهنية أبناء الساحل واختلاف طريقة تفكير أبناء الجبال عن أبناء الصحراء، فقد أحس بوجوب طريقة مثلى تجمع كل هذه النقائض، وكانت له الخطوة الأولى وكان له الحلم الأول، ولكن كل ذلك انهار وتبدد الحلم وضاعت الخطوة، فأحس ببعض الوقت بالغيظ من الرقطاء التي كانت السبب في ذلك، وأحس بكثير من الوقت بأنها أهم من كل الخطوات ومن كل الأحلام التي رسمها، فلا بد له منها، إنها الحلم بعد ضياع الأحلام، وكل الطرق بعد أن تعثرت الخطا.

خرج ابن الخراز من عزلته بأخف ما يحمله المسافر من متاع، وبأثقل ما يحمله الإنسان المهزوم، إنه منكسر وعاشق ولا يعرف وجهته الأولى، وكل حمل من هذه الأحمال كفيل بأن يثني ويهد صاحبه، وفي الوقت ذاته كانت حلقة معارف سلمة بن غيث في مدينة الحضر تتسع، وغناه يجلب إليه الكثير من الأصدقاء، منهم من

يكون دافعه العوز ومنهم من يرى غناه سنداً له، وكانت دماثة خلقه سبباً في تقبل الناس له ضيفاً، بل والإصرار على أن يكون حاضراً في كل مجلس، أما ابنته الكبرى والتي لم يذكر الكتاب اسمها فإنها وجدت في الحياة الجديدة مخرجاً لها مما أصابها به ابن الخراز من إهانة برفضها، كانت كفيلة بأن تحجرها في البيت خشية الأقاويل والتي لم يكن العرب وقتها يتقنون سواها.

أما الرقطاء فكانت هذه الهجرة هي الكفارة التي دفعتها لذنب كتمانها حب ابن الخراز عن أختها ووالدتها، وهي فاتحة الوعي الذي دخل قلبها وعقلها في سنٍ مبكرة لتشعر بعظم الجرم الذي تسببت فيه ودفعه ابن الخراز، حيث خسر مكانته كزعيم روحي وقائد جماعة، وصاحب مكانة بين أتباعه، وتدفعه هي الآن، فبعد أن تجاوزت الإعجاب بشخصية منقذ الجماعة إلى عاشقة له، كم يسعدها أن تقدم تضحية تجاري تضحيته، فوجدت في الكنيسة والديانة الجديدة التي تعنى كثيرًا بالاهتمام

بـالمظهر الخـارجي، وسـهولة إدراك المغفـرة مـن خـلال أشـخاص اسـتطاعوا بعـزلتهم للنسـاء والملـذات أن يحصـلوا على قدر كبير من الاحترام، وكانت تقضي جل وقتها في الكنيسـة بالنحـت بـالطين والحجـر وتعلـم الرسـم والنحـت على يد راهب فيها.

واسـتطرد أبـو شـديد قـائلاً: ولا يشـير كتـاب رحلـة ابـن الخراز عن الطرق التي سلكها شهاب بن سهيل الملقب بابن الخـراز، ولكنـه يكتفـي بـذكر نـزول ابـن الخـراز علـى المقابر في كل قرية يمر بها وكل مدينة، وكان يسأل عن الأموات خلال سنة مضت، ولا يذكر الكتاب لماذا كان يسـأل عـن الأمـوات وهـو في بحثـه عـن ابنـة سـلمة بـن غيـث الرقطاء، هل كان خوفه من الموت هو الدافع لهذا السؤال؟ أم تمنيه موت سلمة بن غيـث؟ إلا أن الكتـاب يصـف صـفاء قلـوب سـاكني المقـابر الأحيـاء مـنهم والأمـوات، وأنهـم في حالة صدق مع النفس تجعل من كل صاحب نفسٍ محطمـة كنفس ابن الخراز مطمئنة.

أو ربما خوفه من دخول المدينة واحتمال لقائه بأحد أتباعه القدماء وما قد يترتب على ذلك من كشف لشخصه ولزيفه، فلا هو اكتفى بالتجارة وأصبح من أكبر الرؤوس بينهم ولا هو اقتنع بما يعتبر طموحاً عند غيره، كان حب الجاه العلامة الفارقة والمميزة له بين أقرانه من الشباب من أبناء جيله والذي كان الواحد منهم إذا أتقن حرفة أبيه شعر بأنه أصبح ولداً صالحًا، يجعل أباه متباهياً به بين العرب، أما ابن الخراز فقد نذره أبوه إلى المطلق، إلى عالم لا يعرف الحر بن سهيل شيئاً عنه، إنه جاء كمن لم يجئ، لهذا لم يحرص على تعليمه مهنة ثقب الأحجار الكريمة وصنع الخواتم بالخيط، تلك المهنة التي جاءت بأمه ذات ضحى صيفي، لقد كان ابن الخراز موسومًا بالمدى، بل كان المدى ذاته، شريانه وأوردته وروحه، أما لهذا المدى من آخر؟

وصل ابن الخراز في رحلة بحثه إلى مدينة قلعة الحضر حيث يقيم سلمة وعائلته، وجاور المقابر فترة من الزمن

وعرف من زوارها أخبار سلمة، وأماكن تواجده، وعرف بعد فترة أين يجد الرقطاء فكان له ما أراد بعد أن مرت عليه سنتان منذ رؤيته لها آخر مرة في بيت والدها، فقد حمل الشوق والخوف والحذر والحب إلى باب الكنيسة، هل يحتمل صدر إنسان هذه التناقضات، أي قدرة عجيبة هذه التي يملكها ابن الخراز!

حين دخل الكنيسة، التقى بالراهب، وطلب حواره وقد قبل الراهب بالحوار معه قبل أن يدخل الناس، إن الراهب كان كمن ألقى بنفسه إلى التهلكة حينما قبل الحوار مع ابن الخراز لقد داهم الشك معتقداته، وبدأ الراهب يطرح أسئلة الوجود والخلاص والحياة الأخرى، وينتظر الإجابة من هذا الأشعث الذي أنهكه السفر، ولم يكن ابن الخراز في حالة مزاجية تسمح له بالاستمرار بالحوار معه، فلم يكن يريد أن يلفت نظر أحدٍ إليه، هناك شخص واحد قد يدخل الكنيسة في أي لحظة هو من يريده وهو

الذي سيحرص على لفت نظره، إنها الرقطاء التي لم تفارق الكنيسة في أي قداس يقام فيها.

أنهى ابن الخراز الحوار مع الراهب آملاً بتكملته في وقت لاحق، وانزوى في ركن يرى الداخلين، وكل موطن حس في جسده يتوجس خيفةً وارتباكاً، دخلت الرقطاء بكامل زينتها فعرفها أول ما رآها وكأن هناك من نادى عليها من الزاوية اليمنى عند المدخل، كانت منطقة مظلمة لم يكن ضوء الشموع يصل إليها، وكل ما يمكن رؤيته شيء يلتحف عباءة، أهو رجل أم امرأة، لا يمكن التمييز عن بعد، ولكن الرقطاء تتقدم وكأن شيئاً يدفعها لذلك، إنه إحساس صادق يدفعها وابن الخراز بلا حراك أو كلمة، وقد كان يرجو أن يراها عن بعد وينتظر الفرصة ليريها نفسه ثم يحادثها، ولكنها بتقدمها هكذا نحوه، قلبت كل ما دار برأسه وأصبح لابد له من تصور مضاد، هل يقوم؟ هل يسلم عليها؟

هل...؟ ماذا سوف يقول..؟ لقد ألجمت الصدمة فصاحته، كما ألجمت أختها الكبرى من قبل فصاحته، لقد كانت المسافة طويلة بالنسبة لها من الباب الكبير إلى الزاوية اليمنى وكانت قريبة بالنسبة له، وقبل أن تتبين ملامحه همست

- شهاب ابن الخراز معلمي

- معلمتي أنت ومعذبتي، أحبك وخلص.

خرجت كلمات ابن الخراز متقطعة وشجية تحمل تعب شهور طويلة، فرحة ضائعٍ بالنجاة، بادرته هامسة تمشياً مع آداب المكان، وأجابها همساً لثقل الكلمات التي تأخذ شيئاً من حزنه وتلقيه خارجاً، أو تعطلها مشاعر الفرح في صدره قبل أن تخرج.

- لقد صدقت معي أحلامي

- وصدقت معي آمالي

ـ لقد حلمت البارحة أنني التقي بك فوق غيمة هذا اليوم وتنزل بنا في هذه الزاوية، أخبرتني بذلك روح رجل ميت كنت تجالسه البارحة.

ـ إنها روحي أنا، أنا ذلك الميت .

ـ إنني جادة في ذلك، لم تغب عني ليلة واحدة منذ أن فارقتنا.

ـ وهل كان اختياري ما كان، أنتِ أدرى بالذي كان، وأقسى ما عذبني أنني لم أصارح والدك بحبي لك وكنت على يقين بمباركته لهذا الحب، الذي حملته وحدي، كنت أعرفه جيداً ويحفظني جيداً، وكنت أشعر أنني كنت أعيش ذاك الحب وحدي في كل مكان أكون به، كنت أداريه خشية أن يراه الآخرون، خائفاً كنت عليه، كان كالطفل معي يسمع ما أقول له ولا يعترض، كان حبك أجمل حدث في حياتي أيتها الرقطاء، وكانت كلمتك (أحبك وخلص) هي أيقونتي التي كانت تحميني وتقويني في لحظات الضعف واليأس.

ـ لم تكن وحدك، ألا يكفي أنني كنت معك.

ــ أنت ما كنت معي، كنتِ أنت أنا، كنتِ شيئاً لم استطع أن أحادثه كنت في داخلي وما أصعب لغة الداخل علي، كنت أقول لك مراراً اخرجي من قلبي قليلاً لأراكِ، وابعدي عن نفسي قليلاً لاشتاقك.

دخل الاثنان في غيبوبة من الحوار الطويل الطويل، بدأ القداس ولم يسمعا كلمةً منه، وانتهى ولم يعرفا بذلك، إلى أن أخبرهما الراهب بضرورة مغادرة المكان، لقد كانا في حالة حب ما عرفتها العرب قبل ذلك رغم أنهما لم يتحادثا من قبل إلا قليلاً ولم يتلامسا إلا قليلاً، وكان بينهما إحساس وهذا هو الحب الحقيقي، الذي يرتكز على الإحساس قبل الحديث وما الحديث إلا للكشف عما هو محسوس، وما الملامسة إلا للأثر على ذلك الشعور.

تفجر حبها له قبل أن تفاتحه وقبل أن تحاور يده تضاريسها.

فقال عبدالحميد بعد ان جذبته اللغة .

ـ عبد الحميد المثقف: هذا حبٌ تحفه أرواح طيبة ورعاية إلهية كحب أبو شديد لحورية.

ـ مولانا: اسكت يا شيخ أتقارن أهل الجاهلية بأخينا أبو شديد وأختنا حورية.

ـ لطفي: أكمل يا أبو شديد لا الرقطاء ولا ألف من الرقطاء يشبهون حورية.

تبتسم حورية بخجل وهي تنظر للطفي فيبادر حبيب: حورية ليست كبقية النساء فتبتسم حورية بخجل.

فيشعر عبد الحميد بغيرة من نظرة حورية بإعجاب لصديقيه فيقول: أنا كتبت قصيدة شعر لحورية سوف أحضرها لها غداً فهي اليوم بعرسها ولا أريد أن يشغلها شيء عن أبو شديد.

فتقول حورية: متى كتبتها اسمعني إياها الآن، فيقول حبيب هل تريدون أن نترك الرواية ونسمع شعر عبد الحميد؟

فيصرخ الجميع لا.. أكمل من فضلك يا أبو شديد

حبيب: الشعر الذي لا يطعم خبزاً لا أريده.

فتجيبه حورية ولكن بعض الشعر يطعم نساء ومعجبات وربما أشياء أخرى.

مولانا: أكمل يا أبو شديد بارك الله بك وبمن استمع لك وأحسن الإصغاء.

فقال أبو شديد: وبينما كان ابن الخراز في الكنيسة يتنظر الرقطاء ، جاء رجلٌ يبكي عن الراهب ، ويقول : ساعدني أيها الراهب .

فأجابه الراهب أي ذنب عملت ؟

قال : لا شيء غير الغباء يا صاحب القداسه ، لقد كنت غبيا فقط.

فقال الراهب قل ما هي حكايتك ؟

فقال وكان ابن الخراز يستمع باهتمام : لقد أردت السفر وكانت لدي مائة درهم ، وخشيت عليها من الضياع أو السرقة فوضعتها عند رجل اشتهر بالأمانة ، وحين عدت من السفر وطالبته بها ، أخذ يماطلني لأكثر من شهر ،

وفي الأيام الأخيرة ينفر مني ، فلا هو ينكرها ولا هو يعيدها إلي .

فقال له الراهب اصبر عليه .

فأشار عليه ابن الخراز بيديه أن يتبعه خارج الكنيسة ، فتهلل وجه الرجل وتبعه.

فقال له ابن الخراز بعد أن عرف بأن اسمه أسامة : أنا أعيد لك مالك بشرط أن توفيني منه عشرة دراهم ، فوافق أسامة ، فقال له ابن الخراز : أحضر لي صندوقاً نحاسياً فارغاً وقابلني هنا قبل الغروب ، وأنا أعيد لك مالك ، وقبل الغروب كان الرجل ومعه صندوق كبير وقال لابن الخراز هل يفي هذا بالغرض ، قال أكثر مما طلبت هيا أوصلني إلى بيت الرجل ، وعند باب البيت قال له ابن الخراز سأدخل انا بالصندوق وبعد أن ألتقي به أدخل دون أن تشير إلى معرفتك بي ، فدخل ابن الخراز وهو يحمل الصندوق على ظهره وقد وضع بعض الحصى فيه ، فقال الرجل مرحباً بك ، أجابه ابن الخراز: لقد سمعنا عن

أمانتك ، وجئت أضع عندك هذه المجوهرات إلى أن أعود من سفري ، فدخل أسامة عليهما ، فقال الرجل المؤتمن مرحبا بك وقال له قبل أن يتكلم ، هذه أمانتك يا رجل ، وأعطاه مائة دينار .

تعجب أسامة من تصرفه وخرج وتبعه ابن الخراز ، فشكر أسامة ابن الخراز وقال له ، ماذا قلت له ، لقد أعطاني الأمانة دون أن أطلبها ، فقال له ابن الخراز ، الطمع عدو صاحبه ، فقد طمع بما في الصندوق من حصى وكان يظنها مجوهرات ، فخشي أن ينكشف أمامي وبادر باظهار أمانته الزائفة ، فأخذ ابن الخراز العشرة دراهم التي اتفق مع الرجل عليها ، وتفارقا على أمل اللقاء .

عاد ابن الخراز الى الكنيسة للقاء الرقطاء ،وبعد عدة لقاءات كانت الكنيسة هي الطرف الثالث بها، كانت توفر لهما الأمان من أعين العابرين، ويشارك دفئها دفء حديثهما، أخذ ابن الخراز المواثيق منها وأخذت مواثيق بأنه لن يكون لسواها وأن بكارتها له كما قالت له بأول لقاءٍ

وحتى يتمكن من إصلاح ما كان بينه وبين أبيها سلمة الذي أصبح من جلساء الملك الضيزن بن معاوية، كان لابد لابن الخراز من البداية وهو القادر عليها لما يملكه من فطنة ومهارة ودهاء في الحديث والثقافة وفي البيع والشراء. فقد استأذنها بالسفر لمدة عام على أن يعود بما يمكنه الاعتماد عليه من المال والجاه الذي قد ينفعه في مواجهة سلمة بن غيث.

وكانت رحلته إلى بلاد ما وراء النهر هي الأنسب لمعرفته ببعض تجارها حين رافق بعض التجار في صباه إليها، وكانت فترة العام قليلة إلا أن الرقطاء لم تكن لتسمح له بأكثر من ذلك فوافق على أن يلتقي بها في أعياد الميلاد في العام المقبل عند باب الكنيسة، وإن كان السفر وغرائبه كفيلة بشغل بال ابن الخراز، فإن الرقطاء ليس لها ما ينسيها وما يبعدها عن مواقد الانتظار والقلق الدائم، فأصبحت وساوسها معلقة بين أن ينساها أو أن يحدث له مكروه، فلم يكن السفر آمنا في يوم ما، فما باله وهو

الذي يدخل مدينة لا يذكر منها إلا بعض الأسماء لأماكن وأشخاص وبعض الكلمات الفارسية القليلة، والتي لا يتعكز بها إلا عابر الطريق، وليس لمن يريد أن يعتاش فيها.

كانت الرقطاء تقضي جُلّ صحوتها برفقة النضيرة ابنة الملك الضيزن، التي كانت تتمتع برقة وعذوبة لا تساير قسوة الحياة في تلك الفترة، ولكنها جميلة الإصغاء لمن يحدثها، وهذه أهم صفة بها جعلت الرقطاء تحرص على صداقتها فقد حدثتها كثيراً عن حبها لابن الخراز، وكانت النضيرة تجد متعة بالاستماع إلى أحاديث الحب الذي لم يباغتها بعد، وربما مرّ ببال الرقطاء أن تكون النضيرة عوناً لها ولمن تحب عندما ترغب بذلك العون، فمن النادر أن لا تكون للنساء غاية في شيء يقمن به، أو في صداقة ينشئنها، إن الغاية خلقت أنثى لأنها جزء منها.

أسمعتها ما قاله ابن الخراز بها وما قالته بابن الخراز، حتى رق قلب النضيرة لهما.

رحل ابن الخراز على بغل أسماه اللقيط، لا دليل معه في رحلته إلا السؤال، والسؤال منجاة المغترب، وقشة الغريق، المسافة شاسعة ولكنها خالية من البشر إلا من القرى المتناثرة، والحفاة العراة المتهالكين على الطرق، لقد أحب ابن الخراز على غير مشتهاه، وها هو يرحل على غير مشتهاه، ويمتطي لقيطاً على غير مشتهاه، أقدار تسوقه إلى حيث يرتجي وحيث لا يعلم، هل يعود قبل عام؟ أم تمر عليه السنون وهو في حالة بحث عن مال أو جاه يعينه على مواجهة الماضي الذي هرب منه حين كان عليه أن يواجهه.

شغل نفسه بتعلم اللغة عند كل قرية يتزود منها بالإجابة حين يبادرها بالسؤال عن أقصر الطرق إلى بخارا، لم يكن معنياً بأسهل الطرق، كان الزمن نده الأول في هذه الرحلة، ولم يكن اللقيط يعي شيئاً من هذا الصراع حتى يكون له موقف معه أو مع الزمن، كان هادئاً فوق ما يرجو منه ابن الخراز، وغبياً إلى الحد الذي لم يستمتع بالحوار المشترك حتى ولو كان بالإشارة مع ابن الخراز.

دخل ابن الخراز مدينة وهو في طريقه إلى بخارا تسمى فضيل الراهب، وقد أغراه اسمها وتحالف مع إغرائها التعب ورغبته بتغيير اللقيط، والذي أحس أنه يتآمر عليه منذ بداية الرحلة، المظهر الديني لم يكن ظاهراً كما يشير اسمها وكثيرة هي الأسماء التي تخالف حامليها، شارع طويل يقسم المدينة، وفي أوله حانة كبيرة ملحقة بغرفة كبيرة مزينة بستائر الحرير الملون وبالمقاعد الناعمة، ملحقة بغرفة لتبديل الملابس، عرف ابن الخراز فيما بعد أنها تستخدم لسوق الجواري، حيث يتم عرض الجواري بها مرة كل سنة.

وفي آخر الشارع كنيسة قديمة، وكأن الداخل لهذه المدينة يبدأها بالحانة ثم يغسل ذنوبه في الكنيسة في آخر هذا الشارع، كان منظر الكنيسة يعيد ابن الخراز إلى ذكرياته قبل شهر مع الرقطاء، ورؤيته للشباكين المطرزين الصغيرين من أعلى الكنيسة، يستشعره بأنهما

عينان يراقبانه ويقولان له، لا تنسَ موعدك مع الرقطاء في أعياد الميلاد القادم.

جلس ابن الخراز في الحانة لا يلوي على شيء سوى التفكير الحر المطلق فيما يصنع غدًا، وبعد أن فرغ من غدائه اقترب منه رجل كبير في السن والبنية أسمر ولحيته الشديدة السواد ترفض الشعيرات البيضاء، فتراها نافرة من بين الشعر الأسود كأنها تريد الخروج، كالذي يرفضه جاره ولا صاحب له، وتتدلى على جفونه شعرات طويلة سوداء من حاجبيه، كأنه قضى زمناً طويلاً في تربيتها، فقال لابن الخراز: أنت عربي أليس كذلك؟

فرح ابن الخراز كثيراً وانتبه لسؤاله بعد أن كان مشغولاً بأمر الشعرات البيضاء والسوداء التي في حاجبيه.

ـ أجل يا سيدي

ـ أنا عربي الأصل أيضاً واسمي حبيب ويدعونني هنا حبيبيان وأعمل منادياً في سوق الجواري.

ـ أنا شهاب بن الحر بن سهيل الملقب بابن الخراز .

ـ مهلك عليّ يا فتى، أنت هنا لست في أرض العرب حتى تتباهى بنسبك كاملاً يريد الناس منك هنا اسماً واحداً جميلاً ينادونك به، ألم أقل لك أن اسمي حبيبيان فقط.

ـ عفوك يا سيدي، لقد تعلمت منك شيئاً.

ـ لا عليك، ما حاجتك بهذه الأرض؟

ـ إنني أبحث عن عمل وأنا في طريقي إلى بخارا.

ـ وهل تعرف أحداً هناك، أم أن لديك شيئاً محدداً في بخارا؟

ـ لاشيء لي هناك ولكنني أفهم بأمور التجارة ولديّ من الفصاحة ما يعينني.

ـ مهلك، هل قلت الفصاحة؟

ـ نعم، على ما أظن .

ـ وهل تعرف الفارسية؟

ـ القليل منها.

ـ أخرج بخارا إذن من رأسك وابق معي هنا، فأنا بحاجة لمن يساعدني في عملي في سوق الجواري .

ـ وماذا عن الفارسية؟

ـ لا عليك، يأتي إلينا الكثير من التجار العرب لشراء الجواري، ويمكنك أن تتولى أمر هؤلاء في الوقت الحالي، ولدينا بعد خمسة أيام مزاد في الغرفة المجاورة للحانة، ولدي غرفة فارغة فوق سطح منزلي يمكنك الإقامة فيها.

دخل ابن الخراز غرفته فرحاً أمام الحاح السيد حبيبيان، وجلس في فترة القيلولة يفكر بما آلت إليه نفسه، فبعد ذلك الطموح في التجارة أصبح صبياً، وبعد قيادته لجماعة آمنت بأفكاره شاباً، فأصبح معلماً يأخذ عنه الناس تعاليم دينهم، وأصبحت قدراته ومواهبه التي تعلمها في مهب الريح، وها هو في مدينة فضيل الراهب يهيئه حبيبيان ليكون مساعداً للمنادي، أي قواداً في سوق الجواري، ألقى جسده المتعب على فراش الصوف، حاملاً برأسه ألف فكرة وألف تساؤل قبل أن يعطي قراره إلى السيد حبيبيان حول قبوله أو رفضه للعمل معه، حيث إنه لم يجب بالقبول أو بالرفض قبل أن يداهمه السيد حبيبيان بدفع حساب

غدائه وحمل زوادته إلى الغرفة، مستغلاً كل لحظة صمت كي يملأها بالحديث عن مدينة الفضيل الرائعة، وعن أبرز الشخصيات التي زاروها، والذين تعاملوا معه وأجزلوا العطاء له في سوق الجواري.

ربما أحس السيد حبيبيان أن فكرة الرفض قد تكون شاخصة تطل برأسها من حائط عقل ابن الخراز، على فناء ضميره العربي النقي، لهذا لم يعطه فرصة الحوار رغم طلاوة لسانه وقدرته، فكلما التقى حبيبيان به حدثه بأحاديث ليس لها نهاية، وبقصص تجعل من يسمعها مشدود الذهن لها، مازجاً بين الخيال والواقع، محصناً بكبر سنه، وما يفرضه من الاحترام على سامعه، وكان ابن الخراز يبحث عن عذر لنفسه ليبقى في هذه المدينة، وكان عدم إدراكه لفرصة الحوار مع السيد حبيبيان مقنعة له بالبقاء، متعذراً لنفسه بأنه لا يعطيه فرصة الرفض، وكذلك مروره على اللقيط كل يوم في الحظيرة مع الحمير والخيول والبغال، ومتعته وهو بينهم أملت عليه

بأن اللقيط لن يتجاوب معه إذا ما قرر الرحيل، وترك هذه الألفة الطيبة، فقرر دون إعلان منه البقاء والعمل ولو لفترة قليلة وينتظر النتائج محاولاً أن يعمل بكل الأساليب التي أتقنها منذ صباه لتحقيق أكبر قدر من الربح، والعودة إلى الرقطاء في أعياد الميلاد.

كانت الحركة في المدينة غير عادية لمن يعرفها، وذلك لقرب يوم سوق الجواري، وكان يرافق هذا اليوم والأيام التي تسبقه والتي تليه حركة تجارة مزدهرة للأقمشة والحانات والمزارات والعطور، وقد ساهمت هذه الحركة مع بقية الإغراءات في بقاء ابن الخراز في مدينة الفضيل، ومع بداية وصول التجار والجواري زاد انشغاله أكثر، وكان يرافق السيد حبيبيان في جولاته، وظل صامتاً ليتعلم كما طلب منه إلى يوم العرض.

بدأ التجار يتوافدون على المدينة، وكأنها أيام العيد، يكثرون الشراء والعطاء، وهذا هو سلوك التجار عند السفر، أما من جاؤوا كمندوبين عن التجار فهم المأساة

في تعاملاتهم، وكان من السهل على ابن الخراز أن يفرق بين التجار والمندوبين من خلال تعاملاتهم في السوق، وكانت هذه المعلومة التي مررها للسيد حبيبيان هامة جداً، لم يكن يعرفها أو يحرص عليها مسبقاً، كل شغله الشاغل وقتها أن يبيع الجواري لمن يدفع، فالمهارة أن تبيع لا أن تعرف خبايا البيع والشراء، وكان ابن الخراز يهمه أفضل البيع.

دخل ابن الخراز على الجواري اللواتي تجمعن في غرفة واسعة، وكان يحمل فكرة خاطئة عنهن، حيث كان يعتقد أنهن حزينات على ما آلت إليهن حالتهن من البيع والشراء كأنهن بضائع، ولكن ضحكاتهن وتجميل بعضهن لبعض وفرحتهن البادية بأحاديثهن كانت صدمة كبيرة له، وقد راقبهن بعيني لص، لا ليسرق نظرة لما تخبئه ملابسهن الفاضحة، ولكنه كان يقرأ حركات أجسادهن، ويعرف من تلك الحركات التي يتقن لغتها ما يريد أن يعرف عنهن دون أن يبحن به، ومن بين الجواري

العشرة كانت هناك جارية جميلة منزوية في ركن الغرفة، ما زالت محتشمة وغير مكترثة بما يدور حولها.

وبدأ حديثه لهن بالعربية، وكان السيد حبيبيان يترجم لهن بالفارسية، والذي دخل لأول مرة إلى غرفتهن الخاصة، حيث إنه لم يتعود على ذلك ولكنه وافق على اقتراح ابن الخراز بعد أن دخل معه بحوار فأقنعه ابن الخراز بضرورة ذلك، وقد لاحظ ابن الخراز أن تلك الجارية المنزوية في ركن الغرفة ملتفتة لكلامه وتسمعه بإصغاء وحين يتحدث حبيبيان لم تكن تنتبه لما يقول، وأن بقية الجواري ينشغلن عن حديثه وينتبهن إلى ترجمة السيد حبيبيان مما جعله يدرك أنها عربية أو تعرف العربية والبقية فارسيات، أو من القرى التي تتحدث الفارسية.

وكان ابن الخراز يريد التعامل معهن كتجارة كما يعرف التجارة، ويسعى إلى زيادة أسعارهن حتى تزيد النسبة المخصصة لسمسار السوق، فقد أخبرهن أن هناك تجاراً وهناك عملاء للتجار وهو يعرفهم، وأن التاجر الذي

يرسل مندوباً عنه هو أكثر ثراءً، فمن الأفضل لهن أن يعشن ببيت تاجر كبير بدل العيش عند رجل عادي أو تاجر بسيط، فاتركو لي مهمتي يا جميلات ولكنَّ مهمتكن، وأعدكن بأحسن حال ستجدنها.

- حبيب الغني: ليتنا عشنا بتلك الفترة لكنت اشتريت قدر ما أشاء من النساء.

- عبد الحميد: ربما ستكون أنت حبيبيان من يدري.

- حبيب: خسئت.

- مولانا: يا إخوان الهدوء الهدوء ذاك عصر ومضى فلو عدنا ربما لن نشهد زواج أبو شديد من حورية فقد تكون هي إحدى الجواري ويشتريها أي واحد منا.

- حورية: كما قال حبيب خسئت يا مولانا.

ويضحك الجميع ولكن ضحكة حورية أتبعتها بنظرة إعجاب بعبد الحميد وقد لاحظ لطفي وعبد الحميد ذلك فبادر لطفي: يا مولانا أنت لا تعرف الناس حق معرفتها،

حورية بذاك الزمان ستكون زوجة السلطان وليس كما انتكس بها حظها لتتزوج أبو شديد.

أضحكت كلمات لطفي الجميع وكان أبو شديد أكثر ضحكاً وقال: صدقت، لقد ظلم الزمن حورية فكم حاولت أن تثيرني بالعطور ولكن أملها قد خاب، خاصة بعد أن فقدت حاسة الشم بالحادث اللعين.

وبينما ضحك الجميع على تعليق أبو شديد قال مولانا: لم يثرني عطر امرأة إلا العطر الذي تضعه أختنا حورية الآن، يا سلام كله أنوثة ورقة.

تبتسم حورية لمولانا بإعجاب وتشكره، ويكمل أبو شديد. وقد روج في السوق أن عدد الجواري قليل هذه السنة ولا يتجاوز الخمسة جواري مما جعل التجار في حالة حرص شديد على اقتناء أية وحدة، حتى لا يعودوا خائبين، فأشار إليهن بأن يراقبن إشارة منه لإبداء النفور أو الرضى حين يراهن أحد التجار، فبدأ الجواري بالتودد إلى ابن الخراز حتى ينتقي إليهن الأفضل والأغنى والأصغر إن أمكن

ذلك، فضجيج الرغبة في صدر الأنثى حين يكون صاحبها كبيراً في السن لا يعادله أي ضجيج، ولم يجد بعضهن حرجاً من رغبتهن بصغير أو متوسط السن قبل الغني، إلا تلك المنزوية في ركن الغرفة التي كانت نظراتها تشبه نظرات الشاة التي رأت سكين الذبح قد فرغت لتوها من ذبح صاحبتها، وتتقدم نحوها لذبحها، لقد كانت مستسلمة حزينة، وكانت أصابعها الرقيقة الطويلة البيضاء تلهو بخصل الصوف المنفلتة من السجادة الحمراء المزركشة التي تجلس عليها، فاقترب منها.

ـ عربية أنت؟

ـ أتميز الشياه في هذه السوق؟ فكلهن لحمٌ قابل للا.......

ـ من أي عرب تراكِ؟

ـ إن التباهي بالأنساب للحر فقط، فما الذي يعنيه النسب لواحدة مثلي؟

ـ من صاحبك الذي يريد بيعك؟

ـ ليس لي وكيل، وأنا أعرض نفسي للبيع فأنا حرة حتى هذه الساعة.

ـ ولكن لماذا؟

ـ ربما لأحقق رغبة والدي في التخلص مني نظراً لحاجته وفقرنا، ولا أظنك تعتقد بأن دفني حية للتخلص مني كفتاة، أهم من بقائي بهذه الحياة أصارع فيها وتصارعني كما أشاء وتشاء.

ـ أو ربما رغبتك في حياة أفضل حتى وإن كانت على حساب حريتك.

ـ دعني من احتمالاتك أيها السمسار العربي والذي لا همّ له إلا أن يهيئ الضحية للجزار بأجمل ثوب.

ـ أنت لاتعرفينني أنا لست....

ـ لايهم ما تكون، ولدي رجاء واحد إن كنت حريصاً على فتاة عربية مثلك.

ـ ما هو؟

ـ أرجو أن تعفيني من التعري أمام المشترين.

ـ وهل تتعرى النساء قبل شرائهن؟

ـ أي سمسار أنت؟ ألا تعرف أن الجارية لابد أن تتعرى حتى يرى المشتري كل ما يريده على أجمل صورة، وبلا أي تشوهات، وبالتعري يزيد سعرها أو ينقص.

التفت ابن الخراز إلى السيد حبيبيان الذي كان منشغلاً بأحاديث الجواري الجميلات وعلامات وجهه توحي بحسرته على عدم قدرته على اقتنائهن وعدم قدرته على إسكات ضجيج المساء في صدورهن، فطلبه ابن الخراز ليحادثه فاستأذن منهن بلطف، ورغم أن حبيبيان كان يحب حديث ابن الخراز إلا أنه في تلك اللحظة لم يكن يطيق أن يسمع منه أي شيء، وكان صوته الهامس وهو يستأذنه مزعجاً أمام فحيح صدورهن الجميل.

ـ هل حقاً أن الجواري لابد أن يتعرين أمام المشترين.

فقال له وهو يضحك: وما الذي أبقاني بلا زواج إلى الآن غير مشاهدتي السنوية والتي تبقيني مشتعلاً طوال العام؟ فلا أشعر برغبتي بأي أنثى ولا أكاد أنطفئ حتى اشتعل مرة أخرى في الموسم الذي يليه.

ـ أنا غير مقتنع بذلك فدعنا نناقش الأمر.

ـ لا أريد نقاشاً في هذا الموضوع.

ـ إنها رغبتك إذاً أكثر مما هي رغبة المشتري؟

ـ إن سوق فضيل الراهب هو الأكثر جذباً للتجار، وذلك بفضل ما أفرضه من نظام يريح المشتري، فلا يتأسف على جارية اشتراها من هنا، فهل تريد أن تلغي نظاماً التزمنا به سنين طويلة في أول تجربة لك؟

ـ نغير فيه إذن.

ـ وكيف ذلك؟

ـ ندخل تاجراً واحداً في كل مرة وتتعرى أمامه واحدة فقط فإذا أرادها دفع سعرها وإن لم تعجبه يدخل غيره، فإذا انتهى الجميع يدخل هو مرة أخرى.

ـ وما الحكمة من ذلك؟

ـ حين يفوت عليه فرصة اقتنائها يخشى من ضياعها لغيره، عندها سوف يحرص على شرائها أول مرة.

ـ ولكن التجار ربما يغضبون لذلك.

ـ نحن من يعمل هنا ولا بد أن نفرض النظام الذي نريد، والذي يحقق لنا الربح الذي نريد أيضاً.

كانت للجملة الأخيرة التي ألقى بها ابن الخراز في مسمع حبيبيان وقع السحر فالربح هو الذي يريده في نهاية الأمر، أما أمر الاشتعال الذي تعود عليه فليس أكثر من اشتعال شمعة في وضح النهار لا يهتدي بها الناس، ولا يشعر بوجودها أحد، فوافق شريطة أن يعود عن هذا الأمر إذا اتحد التجار وأصروا على وجودهم معاً وتعريتهن معاً.

فقال له ابن الخراز: إن المرأة هي الوحيدة القادرة على توحيد الرجال والقادرة على تفريقهم ويجب أن نعرف كيف نستفيد منها لجعلهم أعداء بدل أن يتحدوا معاً.

دخل التجار واحداً تلو الآخر على مضض وكان يقال له لا يوجد إلا هذه فإذا أضعتها فلن تحصل على سواها، فدفع أكثر التجار سعراً مبالغاً فيه حتى لا يكون سفرهم بلا فائدة، وبينما يدخل التجار تباعاً، ودون توقع من ابن الخراز، دخل سلمة بن غيث والد الرقطاء عليهم، فارتبك ابن الخراز وحاول إخفاء وجهه ولكن سلمة لمحه فشك في أمر هذا الرجل الذي استدار حين دخل، فسأل عنه حبيبيان حيث أخبره عنه، فقال سلمة بنبرة لا تخلو من

السخرية: كيف حالك يا أيها المعلم ابن الخراز هل جئت شارياً أم بائعاً؟

استطاع ابن الخراز أن يستوعب الصدمة فالتفت إليه مرحباً وقال له: جئت بائعاً لجارية عربية عفيفة بكر، أبحث لها عن رجل طيب ولا أظن بهذه المدينة من هو أفضل من سلمة بن غيث الرجل العربي الشهم، والذي ما حييت لن أنسى وقفته معي.

ـ دعك من الشهامة والفطنة، فلو كنت كذلك لما غررت بي وصنعت ما صنعت.

ارتكب سلمة خطأه القديم، بأن دخل مع ابن الخراز بحوار طويل خرج منه بنسيان ما مضى، وقناعته باقتناء الجارية العربية التي عرضها ابن الخراز دون رؤيتها، وكان حبيبيان صامتاً متعجباً من أمر ابن الخراز الذي دخل على الجارية العربية وسألها عن اسمها، فأخبرته بأن اسمها مُرة و أخبرها بالتاجر الذي اشتراها وعراقة نسبه وعلاقته به وبابنته، وأوصاها أن توصل السلام للرقطاء، وأن تقول لها بأنه قادم في أعياد الميلاد، وأنه يحاول أن

ينسى أيام السنة كلها ما عدا اليوم الذي سوف يراها فيه، وأودع ورقة بيدها تسلمها للرقطاء كتب فيها:

أميرة الشعر أنت البدرُ في سهري

إني أحبك يا زادي على سفري

والله والله إن الأرض واسعةٌ

إن جئتِ في البال ضاقت وابتدى كدري

أنا أحبك حباً لا يفارقني

كأنما أنت فيض الله في قدري

خرجت مُرة ومعها القصاصة بعد أن قرأتها وأخفتها، لتلتقي بسلمة حاملة في صدرها المكانة الكبيرة لابن الخراز، واستأذنت ابن الخراز أمام سلمة بكلمة لك السلامة في كل أمر تريده يا سيدي، وغادرت سوق الجواري مزهوة برفقة سيدها الأول سلمة بن غيث، فلم تعد مضطرة لتدفن حية، ولا أن تبيع جسدها بالخيام ذوات الرايات الحمراء.

وغادر بعض التجار تباعاً مدينة فضيل الراهب وبدأت الحياة تهدأ تدريجياً، وكانت حصيلة ماحصل عليه حبيبيان هذه السنة يوازي ماحصل عليه في الخمس سنوات التي مرت مجتمعة، فأجزل بالعطاء لابن الخراز وعرض عليه أن يكون مسؤولاً معه عن سوق الجواري في السنوات القادمة حيث إنه أحس بكبر سنه وبذكاء ابن الخراز الفطري، مقتنعاً بأنه قادر على الاستفادة منه أكثر في السنوات القادمة لما يملكه من فطنة ومعرفة بالنفس البشرية، وقد استحسن ابن الخراز الفكرة.

اقترح ابن الخراز على السيد حبيبيان أن يقيم السوق كل ثلاثة أشهر وهي مدة كافية ليأتي التجار من المدن المجاورة ويتم تبادل الجواري على أقل تقدير، فقد يشتري أحد التجار جارية فيأتي ويبيعها بعد ثلاثة أشهر ويشتري غيرها، فاقتنع السيد حبيبيان بالفكرة فأشاعها لمن بقي من التجار وعم الخبر المدينة التي تحيا بهذه المناسبة، فبقي ابن الخراز لتسعة أشهر يبيع ويشتري في سوق الجواري، وأصبح الأشهر بين كل الأسواق، فكون ثروة لا بأس بها وأصبح السيد حبيبيان مجرد مراقب لما يحدث ويأخذ

نصيبه من المال فقط، وعرف أن ابن الخراز عازم على الرحيل فقال له:

ـ إنك تتقن هذه الصنعة فلمَ تتركها وقد تكسب فيها الكثير؟

فأجابه ابن الخراز: ليس فقط لأن لدي موعداً عقدته قبل سنة ووعدت بأن لا أخلفه، إنما يحزنني أن يتباهى الناس بالأنساب وقد يكون أحدهم من نسل جارية تباع وتشترى، هذه نساء لديها ذرية وربما بعد عشرات السنين ستجد من يتباهى بنسب والده وهو حق له، ولكنه قد لا يعرف من تكون جدته أو أم جدته، فربما تكون واحدة ممن مررن علينا هنا، هذه المهنة تجعلني أشك بكل شيء، وأنا لا أريد أن أفقد قناعتي أو أن يهزها شيء ولكن ذلك قد حدث.

الفصل الثالث

اقترب موعد أعياد الميلاد فبدأ ابن الخراز باستعدادات السفر وشراء الهدايا للرقطاء والفرس الذي سوف يسافر به، فلن يعيد تجربة اللقيط الذي قاده إلى ما وصل إليه كسمسار في سوق الجواري، بعد أن كان قد تهيأ للوصول إلى طريق الحرير ليصبح أحد تجاره، وفي صباح يوم من أيام نهاية الخريف بدأ مسيرته إلى مدينة الحضر قرب النهر حيث تقيم الرقطاء، وكان قد تعلم الكثير من لغة الفرس ومن عاداتهم وطرق السفر المختصرة، والتي لم تكن تقل صعوبة عن رحلة الذهاب، حيث كان محملاً وقتها بالأمل وبالخوف من المجهول، وهاهو يعود محملاً في رحلة العودة أثقالاً مختلفة، فهو محمل هذه المرة بالشوق واللهفة والذي لا يخف عن أي حمل آخر إن لم يكن أكثر، تحسس نبضات قلبه الفرحة.

فأخذ ينشد:

وأنا أحمل هذا الحب يا ملهمتي أجمل زادْ

مثل شيخ حمل المشعل يمشي هائماً في كل وادْ

وكأني غيمةٌ تمطر فوقَ الماءِ لا زرع احتواها

وازدهي في كل وادْ

يا تعالي.. قبل أن أخسر غابات الأماني

بكِ من هذا العنادْ

كم تحسرتُ وناديتك مُدِّي

يدَكِ الأحلى لتغتالَ الرمادْ

وصل ابن الخراز بموعده إلى مدينة الحضر، حيث الرقطاء والحب الذي لم يعد يحتمل الابتعاد عنه، وفي أول أيام أعياد الميلاد وقف أمام باب الكنيسة حسب موعده الذي أبرمه قبل سنة، متدثراً بالشوق والحنين إلى رؤية الرقطاء، حابساً كل مخاوفه بأن لا تأتي، وطارداً كل ظنٍ لايراعي شوق سنة طويلة لرجل أحب فصدق، ونافياً كل شك لا يقدّر حنينه إليها، وبينما هو في حرب مع ظنونه حسمت إطلالتها عليه الحرب لصالحه، فبادرها بالعناق وقال:

ـ سنة لست بها يابسة الأغصان، هل تدرين عنها يا فرات الروح؟ هل تدرين ماذا أو لماذا تتساوى بعدك الساعات بالطول ولا تحتفظ الألوان في أسرارها؟

ـ إنني كابرت لكني محالٌ أن أجاريك بهذا الصدِّ، فاختر ميتةً أخرى لكي تقتلني غير فراق لسنة حيث ضاعت من خطاي الأمكنة وأنا أتبع نبراس أحاديثك، خذني نجمة تربك سير الأزمنة.

ـ كل شيء يتشهاك إذا ماكنتِ أنت الصيغة الأحلى أتركيني أتشهاك كغيري من بقايا كائنات الليل إن دبت بها روحٌ، إذا مرَّ عليها حلم اللقيا، وإن كنت بعيدة يا أيتها الأنثى الفريدة.

ـ دعك من سرد التفاصيل لقد عشتُ طوال العام لا أحلم إلا بنهايات السنة، فكأني عشت دهراً بسنة واختصرت العمر، للمت شتاتي وجمالي صغته كلاً لهذا اليوم.

هل أحببت غيري؟ هل تمنتك سواي أي أنثى؟ كلها أسئلة طافت ببالي.

ـ وأنا هل طفت؟

ـ أنت الساكنُ الدائمُ يا سرَّ دموعي وابتسامي ووجودي

كلها طافت علي.

ـ كلها؟

ـ بل أنت أدرى فتخير ميتةً أخرى لكي تقتلني فيها سوى الصدِّ تخيّر.

ـ قد تخيرتك من بين نساء الأرض .

لو كانت لنا أرضٌ سوى الأرضِ لأحببتك أيضاً فوق ما فيها ، أحبيني كما أحببتك الآن ويكفيني ، أو كما قلتِ (وخلص).

ـ لم أكن أعرف عنك الاقتصاد ، إنني أهواك يا سر وجودي، وهواي الآن أغلى لك إن شئت وأكبر.

ضمها بين ذراعيه فأحس بوتدين صغيرين يخترقان صدره ويوغلان يوغلان إلى حد القلب، ضمها أكثر، لم تكن ضمته الأولى لها ولكنه أحس وكأنها الأولى حين وضعت قدميها على قدميه لتكون أكثر طولاً ، وأحبت أن تعاتبه وكانت يده اليمنى على خصرها والأخرى أسرها شعرها فتجمدت فيه ، فلم يجد أمامه ما يمنعها من الكلام سوى أن يضع خده على فمها ، فانزلقت شفتاها الناعمتان لتستقرا على فمه، فكانت القبلة الأولى، ومن هنا تعلمت

العرب القبلة ولم تكن تعرفها من قبل، هذا ما قالته العرب، ورغم أن الناس في احتفالات الميلاد أكثر ما يكونون انشغالاً مع أنفسهم أو بمن معهم، ورغم أن الخمرة قد لعبت بعقول الجميع، إلا أن المارة من النساء والرجال استوقفهم منظر ابن الخراز والرقطاء وهما في الحالة إياها، فأخذ البعض من قبيل التندر والهزل بتقليدهما، فأعجبتهم هذه اللعبة، عندها أيضاً عرف الروم القبلة، وشاعت بينهم دون أن يحددوا لها اسماً، لقد كان معناها وأثرها يكفي، وظلت القبلة دهراً طويلاً بلا اسم إلى أن عرفتها الأجيال اللاحقة بعد فترة طويلة، وكان من طقوسها أن تقف الفتاة على قدم الرجل حتى تصبح أكثر طولاً كما فعل ابن الخراز والرقطاء، ولا تكون مكتملة إلا بذلك.

نسيت الرقطاء الكنيسة والصلاة وربما نسيت أنها مسيحية في ذلك اليوم المشهود عند كل المسيحيين، وأحست أنها مثل ابن الخراز بلا ملة أو أنه ملتها كما أحس هو أنها ملته، أو ربما قد آن الأوان لتعود الخرازية من جديد.

تسمرت قدماها فوق قدمه، والقدّاس قائم في الكنيسة، وانتهى القداس وانفضت الناس وهي على ما كانت عليه، وتحاورا وعاتبته واقترح عليها و وافقت وهما لم ينبسا بكلمة واحدة، كان ذلك بمشاعرهما وأفكارهما، ومما تحاورا فيه دون كلام هو الزواج، واقترح عليها أن يتزوجا بسرعة ووافقت على كل ما أملاه عليها في تلك الحالة.

قضى ابن الخراز شهراً كاملاً متخفياً خشية أن يراه سلمة بن غيث الذي كثرت مشاغله وكبرت أهميته حين أصبح من جلساء الملك الضيزن، وكان ابن الخراز يلتقي بالرقطاء وبرفقتها الجارية مُرة كل يوم خارج الحصن، وفي آخر لقاءاتهما أحضرت معها النضيرة ابنة الملك الضيزن لتتعرف عليه، بعد أن حدثتها عنه كثيراً، وكان مما قاله لها ابن الخراز ناصحاً ومعلماً أن الحب لابد أن يكون من رعايا الفجأة والمباغتة وإن كان هو أكبر من المفاجآت والمباغتات، وأن الذي يحب لابد أن يضحي بأكبر شيء في حياته إذا لزم الأمر لحفظ الحب، ويكفي أن اسم الحبيب حين يذكره المحبوب أو يتلفظ فيه يشعر

أن شفتيه تتعطران بلفظ حروفه، وصدره يتمدد من هواء الاسم الذي يحبه حين يتلفظ به.

لقد كان لكلماته الأثر الكبير في نفس النضيرة والتي بدأت تشعر باكتمال أنوثتها منذ فترة قريبة، ولا بد لها من رجل يستحق ما اكتنزته من مواسم شتى بجسدها طوال سنينها الجميلة، رجلٌ لا يقل جمالاً ولا جاهاً حتى يقبله والدها، ولا يقل رجولة أو فهماً بالمرأة حتى تقبل به النضيرة التي تذوب رقة في حديثها، وتثير كل شيء حين تمشي، ولكن لا يثيرها شيء مما حولها، إن الجمال نقمة على صاحبه في بعض الأحايين، وأنشدها مما كتبه بالرقطاء:

أيتها الأجمل ما بين النساءْ

يا خذي أو يا دعي لي

أتشهى ما أشاءْ

لقد اشتقتك أياماً

وعانقتك أحلاماً

وهيأت أمانيك إلى كل لقاءْ

يا رعاك الله زيديني حنيناً

مثلما ازدادَ بقلبي الاشتهاءْ

وكانت مُرة جارية سلمة بن غيث هي رسول الغرام بين الرقطاء وابن الخراز، وكانت الرقطاء تحسن إليها كثيراً، وبعد أن اكتمل الشهر قرر ابن الخراز السفر إلى مدينة فضيل الراهب على أن يعود ليطلبها للزواج في العام المقبل بعد أن يكون قد استعد بالمال للزواج منها، ولم تكن الرقطاء لتوافق لولا معرفتها بالعلاقة بين من تحب وبين والدها والتي قد لا يكسرها إلا المال بعد أن أصبح والدها من المقربين عند الملك الضيزن.

سافر ابن الخراز وهو مفعم بالإصرار على النجاح والحصول على الثروة حتى وإن كانت من جلود النساء في سوق الجواري، فما تعود الناس أن يسألوا الغني عن مصدر ماله، إنهم تعودوا أن يحترموه فقط، من كانت لديه حاجة عنده يقدره، أو من يتوقع أن يحتاجه في يوم ما يحترمه، ومن لم تكن لديه حاجة في ماله، فهو أكثر حرصاً على تجنب الأذى منه، لذا يحترمه.

ورغم برودة الجو والأمطار إلا أنه لم يجد ما يثنيه عن رحلته، أو ما يجعله يفكر قليلاً بالبقاء، فهو منذ أن ترك

أرض الجزيرة وانتهت علاقته بها، أحس بفقدانه للانتماء وكل بلاد الأرض بلده وكل أراضي البلاد أرضه، وما تعلقه بمدينة الحضر إلا لأن الرقطاء فيها، وما حبه لمدينة فضيل الراهب إلا لأنها المدينة التي سوف تقربه من الرقطاء، وعندما ينالها لابد له من حاجة أخرى في مكان آخر وعالم آخر يمارس معه دهاءه الفطري وطموحه الكبير، ليكون الأفضل كما كان يريد دائماً.

توقف أبو شديد ليلتقط أنفاسه ويشرب الماء وانتبه إلى صمت الجميع.

فقال: أعجبتكم الرواية؟

فقال لطفي: ما أجمل الحب الذي يجمع المصالح بين الأحبة.

وقال عبد الحميد: حتى في الحب تتحدث عن المصالح؟

فأجابه لطفي: كل شيء يا أخي مصالح ليست المادة وحدها مصالح، حتى حين يحب الرجل امرأة أليس لديها شيء يريده؟ وهي كذلك هناك مصلحة إذن وإن اختلفت بين مصالح الدول والأفراد.

فقالـت حوريـة: الحـب شــيء لـه علاقـة بالمتعـة الروحيـة والجسدية، فقد ترضي امرأة واحدة خمسة رجال أو عشرة رجال في ليلة واحدة، ولا يرضيها أحد منهم جسدياً وقد تكتفي بالمتعة الروحية.

فقال حبيب: وكيف لا تسمتع المرأة حين يستمتع الرجل؟

قالت حورية: إن متعة المرأة برأسها، وبرأسها فقط، وما إن تضع رجلاً برأسها فإنها تستمتع، وليس كالرجل الذي لا تكون متعته برأسه.

نظر الجميع إلى بعضهم فقال مولانا: أكمل يا أبو شديد فما أجمل من روايتك إلا أحاديث ونظريات حورية.

ابتسـمت حوريـة وقالـت: مولانـا حـديثي لـيس نظريـات صدقني.

فقال أبو شديد: تقول الرواية كان الضيزن بن معاوية يدين بالولاء للفرس وهو ملك عربي وسع ملكه أرض الجزيرة والشام، وقد اجتمع عليه من قبائل العرب ما لا يحصى وأحس ببعض الزهو في غيبة ملك الفرس شاهبور وانشغاله بأعمال فارس، فامتنع تجار الحضر عن دفع ما عليهم لرجال شاهبور مما أغضب شاهبور فأرسل إلى

الضيزن يخبره بقدومه في جيش كبير ولن يمنعه من ذلك إلا حضور الضيزن وكبار تجاره وحاشيته بما عليهم دفعه مع رسول شاهبور، معلنين الولاء والطاعة.

لم يكن أقسى على العربي من الإهانة والذل، فقد كانت كرامة العربي مما يعتد بها حتى وإن كان رأسه بالكفة الأخرى، فرفض الضيزن ما عرضه عليه شاهبور، وقد لعب سلمة بن غيث دوراً كبيراً في إقناع الضيزن بن معاوية بعدم قبوله لعرض شاهبور لأنه لا يأمن عليه حياته وكان وقتها سلمة بن غيث من أقرب جلساء الملك الضيزن ومما قاله: يامولاي إذا أنت قبلت بما عرضه شاهبور وعدت سالماً فلن تجد من يدين لك بالولاء من العرب، وإنما الملك باعتداده لا بارتداده، وهانحن بكل ما نملك نضعه تحت تصرفك لشراء السلاح ورفع أسوار حصنك المنيع.

لقد كان سلمة بن غيث يعلم أنه لو انتصر الضيزن فستكون له الحظوة عند الملك لأنه خاطب فيه ما يحب كل صاحب ملك أن يخاطب به، وهو إعلاء شأن الهمة والعزم ونبذ الضعف والمذلة.

لم يجرؤ أحد على مخالفة هذا الرأي مادام الضيزن لم يبد رأيه بعد ، فليس من المقبول أن يطلب أحد من الملك بأن يذهب ذليلاً إلى شاهبور ، وكلهم يعرفون قسوة الضيزن واعتداده برأيه حتى على أهل بيته ، فأيد كل الجلساء ما قاله سلمة بن غيث وبدأت أوامر الملك بالاستعداد لحرب شاهبور ، وتم تصنيع السلاح وتكديسه في القلعه وشراء المؤن استعداداً لحرب قد تكون طويلة.

كان الحصن بمدينة الحضر دائري الشكل، وقد بناه جد الضيزن معاوية قبل سبعين سنة بمعرفة ساحرٍ حبشي تعلم من كهن اليهود الكثير، وكان حصناً منيعاً شارك الجن في بنائه ، حيث قيل بأنه كان في كل صباح يفيق البناؤون ليكتشفوا أن أحجاراً أضيفت على السور بطريقة هندسية لم يعهدوها ، وكان يأتيهم الحبشي كل صباح ليأمرهم بصف الأحجار فوق ما تم بناؤه ليلاً فيمتثل البناؤون لأوامره، وفي الصباح يكتشفون أحجاراً أخرى لم يقوموا بصفها من قبل، ويأتي لهم الحبشي ليأمرهم دون مجادلة إلى أن انتهى البناء الدائري للحصن في زمن قياسي وفي شكل لم يعهده أحدٌ من قبل، حيث وضع الساحر

الحبشي طلسماً لهدم الحصن نزولاً عند رغبة الملك إذا ما حدث وتحصن به أحد لينتزع منه الملك، ولم يكن يعرف طلسم هدم الحصن إلا الساحر الحبشي والملك، وقام الملك بقتل الحبشي وهو نائم بعد أن تم بناؤه، خشية أن يفشي سر الطلسم لهدم الحصن، كما أطلق عليه الناس حصن الجن، ومع تقادم عهده تعود الناس على اسمه حصن الحضر لأنه بعيد عن البادية وكل المدن المجاورة التي على النهر يسكنها الحضر، وبقي طلسم هدم الحصن مع الملك وحده والذي أورثه لمن اعتلى العرش من بعده من أبنائه، فوصل الطلسم إلى الضيزن من أبيه ولم يعرف إخوته به، ولكنه كان مستهتراً بهذا السر الذي وصله بعد سبعين سنة ومستهتراً بمصداقيته فأخبر به أبناءه وبناته.

لقد كانت تعاليم الحبشي لفك الطلسم أن تخرج خارج الحصن كل فتاة بكر يأتي لها الحيض ولا تدخله إلا بعد انقطاعه عنها رغم أن الضيزن كان إيمانه ضعيفاً بما حفظه من أبيه إلا أنه ألزم الرعية بذلك وألزم بناته كذلك، وهذا ما دعاه إلى كشف أمر الطلسم إلى بناته حتى يتقبلن أمر خروجهن من الحصن وقت الحيض، فقد

كان حبه لابنته النضيرة كبيراً ، وكان جمالها مضرب الأمثال في زمانها ، حتى أن الضيزن قد أوكل تربيتها وتغذيتها إلى جيش من الجواري والخدم، فلم تكن تأكل إلا الزبد والمخ و شهد الأبكار من النحل الجبلي، ولا تشرب من الخمور إلا أصفاها ، مما جعلها ناعمة الملمس رقيقة الصوت شهية الخجل.

ـ مولانا : بالله عليك أعد علينا ما قلته ماذا كانت تأكل النضيرة .

فأعاد أبو شديد: فلم تكن تأكل إلا الزبد والمخ وشهد الأبكار من النحل الجبلي ولا تشرب من الخمور إلا أصفاها.

لطفي: هل اكتفيت؟

مولانا : أكمل يا رجل، مماجعلها ناعمة الملمس رقيقة الصوت شهية الخجل.

فقالت حورية: هذه أنا وضحكت.

فقال مولانا : لقد صدقت هذه أنتِ وهنيئاً لك يا أبو شديد

فابتسمت حورية للجميع وقالت و هنيئاً لكم جميعاً.

كان أبو شديد شارداً بالرواية ينتظر صمتهم بينما يتبادل الأصدقاء النظرات بصمت وريبة، فقالوا بصوت واحد أكمل يا أبو شديد ماذا حدث للضيزن .

فقال أبو شديد: تقول الرواية أيها الأصحاب وصل شاهبور على رأس جيش كبير، فأطبق حصاره على الحصن الذي تحصن به الملك الضيزن ومن معه، وقد صعب اختراقه أو هدمه، وصمد أمام محاولات جند شاهبور المتكررة، مما قويت معه معنويات الناس في الداخل وعادت التسمية القديمة التي كانوا يطلقونها على الحصن قديماً بأنه حصن الجن.

وكانت الفتيات الأبكار يخرجن عند كل محيض كما هي العادة التي ألفنها، وكانت النضيرة قد لمحت شاهبور في أول مرة خرجت بها من الحصن، وقد كان مضرباً للمثل بوسامته وفروسيته حتى قيل إنه أوسم رجال عصره، فوقعت في حبه بعد أن تعددت طلعاتها من الحصن، تعرفت عليه وأحبته وتذكرت كلمات ابن الخراز عن الحب وعن التضحية بأغلى شيء لدى المرأة ولم يسعفها عمرها ووعيها بالمخاطر فقالت له: ماذا يكون لي إن أخبرتك بطريقة لهدم

الحصن لا تكلفك موت جندي واحد من جندك؟ فقال لها: تكون لك الحظوة عندي وتكونين المقدمة والمقربة لي من النساء، وأمنحك شرف ولادة من يرث عرشي من بعدي، فقالت: على أن تعدني بأن لا تقتل أبي أو أي أحد من الرجال فقال لها: لك هذا فقالت: إن هذا الحصن له طلسم في بنائه وطلسم في هدمه ومن حسن طالعك أم من حسن طالعي أم من سوء طالع أبي أنني أعرف طلسم هدم هذا الحصن .

فقال لها شاهبور: وهل تؤمنين بحكايا الطلاسم والجن؟

فقالت النضيرة: ما عليك سوى أن تجرب.

فقال شاهبور: حسناً وما هو؟

فقالت النضيرة: هو أن تأخذ دم فتاة بكر زرقاء وقت المحيض وتبلل به رجلي حمامة بيضاء و تطلقها فإذا وقفت على سور الحصن فإنه ينهدم.

فبحث شاهبور عن حمامة بيضاء وانتقى فتاة بكر زرقاء خارج الحصن وفعل ما أمرت به النضيرة، فانهدم الحصن أمام دهشة وانبهار الجميع، فدخل شاهبور وجنده بعد ثمانين يوماً من الحصار واستباح المدينة، وقتل الضيزن

وكـل رجالـه بمـن فـيهم سـلمة بـن غيـث، وأُخـذت النسـاء سبايا إلى فـارس، وكـانت النضـيرة قـد طلبـت مـن شـاهبور أن يجعـل الرقطـاء وصـيفة لهـا فوافـق وأخـذها معهـا ضـمن الغنائم والجواري إلى فارس.

وفي طريق العودة تزوج شاهبور النضيرة، وفي الليل أحسـت بألم في رقبتها يمنع عنها النوم، وحين تفحصـها وجـد ورقـة مـن شـجرة عالقـة برقبتهـا، وقـد أثـرت بهـا كـثيراً وذلـك لنعومـة بشـرتها ورقتهـا فتعجـب شـاهبور مـن صـفاء بشـرتها فقال وهو يرى مخ عظامها من شفافيتها:

- ماذا كان يغذيك أبوك حتى أصبحت على هذه الحالة من الرقـة والنعومـة؟ فقالـت: الزبـد والمـخ وشـهد الأبكـار مـن النحل وأصفى أنواع الخمور.

- إنني على يقين بأنني لن أكون أحن عليـك مـن أبيـك حتـى لا تغدري بي.

فأمر جنده في الصباح بربط شعرها بذيل الحصـان ورجلها بحصان آخر وأمر بتمزيقها خشية أن تغدر به.

لقـد ماتـت شـر ميتـة وكـأن قاتلـها ابـن الخـراز ولـيس شاهبور، حيـث إنـه هـو الـذي أخبرهـا أن مـن يحـب عليـه أن

يضحي بأغلى شيء من أجل من يحب، فصدقته وضحت بأبيها وأهلها وها هي الآن ممزقة في الطريق بين ركام مدينة الحضر ومدينة نود بفارس لا تأنف منها الطيور الجارحة وأكلة الجيف من الحيوانات.

لم يعرف أحد بقصة النضيرة وإفشائها سر الطلسم لهدم الحصن فمات معها سرها، ولم يكن شاهبور ليفشي سرها فيقلل من شأن انتصاره الذي زرع الرعب في قلوب كل من يدين له بالولاء، حتى أنه يتصنع القناعة للموابذة والكهنة من عبدة النار حين يخبرونه بأنهم دعوا له الآلهة لمساعدته لهدم الحصن، وظن الموابذة أنهم أصبحوا من المقربين له أكثر مما كان، وشغل نصره قيصر الروم الذي جمع الرهبان حوله لينبؤه بأمر هدم الحصن في مدينة الحضر.

لقد حزنت الرقطاء كثيراً على النضيرة، حتى بات الكلام عليها أمراً شاقاً، حين شاهدتها والخيول تمزقها قطعاً، وهي أرق من كل ما قام به شاهبور من عنف، وحقدت على الملك، ولكنها لم تستطع بالوقت ذاته أن تخفي أحاديث نفسها حينما تفكر بفرحة النضيرة

بزواجها من شاهبور، وعدم اكتراثها لموت أبيها وأهلها، ولكنها لم تكن لتتصور ما حدث، وظلت ناقمة ساهمة حزينة ليس أمامها ما تفكر فيه غير ابن الخراز ثانية، حين تقيم في بلاد لا يعرف عنها شيء، وفي قصر الملك الذي لن يصل إليها فيه أحد.

دخلت الرقطاء في قصر شاهبور كغنيمة حرب بعد رحلة سفر طويلة، لم تنم فيها إلا القليل القليل، ولم تتحدث إلا بأقل الأقل، حتى كادت تنسى الكلام من أذى صمتها، وكانت جواري ونساء الملك يعاملن معاملة خاصة، فلا بد لهن من إتقان اللغة حتى يكون الحديث معهن ممتعاً، ولا بد لهن من إتقان التقاليد الملكية، ولكي يتعلمن كل ذلك أدخلن في مبنى مرفق بالقصر يتعلمن فيه اللغة والعادات، ولا يسمح لهن بمجالسة الملك إلا بعد الاطمئنان من سلامة نواياهن والتأكد من رغبتهن بذلك، فتم عزل النساء العربيات عن بعضهن حتى يتم احتواؤهن فيسهل انقيادهن، فقررت الرقطاء عدم الاستجابة للتعلم دون أن تدري ما نتيجة ذلك، كل ماكان يعنيها أن تكون في يوم ما خارج هذا القصر، وفي أي مكان يقطنه العرب أهلها،

ولم تكن لترضى بأن تختلط دماؤها العربية الأصيلة بدم آخر، حتى لو كانت دماء الملك، فلن يكون لها أي مصير أسوء من مصير النضيرة، وقد كانت راضية به كل الرضى.

حين وصل خبر حصار شاهبور لمدينة الحضر عمت الفرحة مدينة فضيل الراهب لأنها كانت تدين بالولاء لشاهبور، ولم يشعر بالحزن والغضب إلا بعض العرب فيها، وكان ابن الخراز واصلاً لتوه فقرر الذهاب إلى هناك لنصرة الملك الضيزن، وقام بالدعوة سراً بين العرب فيها، ولكن دعوة ابن الخراز باءت بالفشل، حيث كان أمراً مستهجناً أن يذهب أهل مدينة لنصرة مدينة أخرى، دون أن يكون هناك حلف أو رابط قبلي بينهما، وكانت الأخبار التي كانت تصل مفخمة ومضخمة حول جيش شاهبور وكانت تثير الرعب في قلوبهم، فقد قالوا إن جيش شاهبور تجاوز الثمانين ألفاً، وهناك من كان يزيد على هذا الرقم على قدر محبته لشاهبور أو على قدر كراهيته للعرب، فلم يتشجع أحد للذهاب مع ابن الخراز إلا السيد حبيبيان، الذي رأى أنه ولد عربياً وعاش فارسياً فلا ضير أن يموت

عربياً، ولكن ابن الخراز استثقل عليه السفر لكبر سنه، فأصر السيد حبيبيان ليعودا معاً، في رحلة كان للسيد حبيبيان الأثر الكبير في إطالتها لحاجته المتكررة للراحة.

دخل ابن الخراز متأخراً إلى آثار مدينة الحضر، فالموت من كل الجهات ورائحة الدم والعويل والعاهات وركام حجر الحصن يوحي بقبرٍ كبيرٍ لمن يراه من بعيد، وقف السيد حبيبيان بعيداً منهاراً من منظر الدماء والموت المجاني في كل زوايا الحصن، وانتقل ابن الخراز بين الناس يسألهم عن الرقطاء وعن أهلها، وبعد عناء عرف أن شاهبور أخذها سبية مع النضيرة وغيرهن كثيرات.

قرر ابن الخراز السفر إلى مدينة نود وربما أمكنه أن يدركهم في الطريق، ولكن السيد حبيبيان رفض اقتراحه قائلاً: ماذا يمكن أن تفعل هناك؟

ـ وماذا بقي لي هنا حتى أحرص عليه؟

ـ ولكنها عند الملك.

ـ لابد لي من ذلك فلا تثبط همتي أرجوك فربما أدركها بالطريق، وسأجد الطريقة التي أستخلصها منه.

ـ إنه شاهبور يا بني، وأنت لا تعلم من سلوك الملوك شيئاً، وكيف يشعر بأنه فوق البشر، لا يقبل نقاشاً ولا حواراً، إلا إذا أردت أن تتحدث بما في نفسه، أو بما يحب هو، فلا مجال للاختلاف معه، الموت هو الاختلاف يا بني.

ـ وليكن ما يكون.

ـ يُقال إن جنده لا يسألون غريباً يقترب من القصر، يقتلونه ثم يحاولون معرفة من يكون، أو ماذا يريد، أو لماذا جاء، كل هذه الأسئلة لا يطرحها الجند إلا متأخرة .

ـ الموت أهون لي يا سيد حبيبيان من أن تكون الرقطاء جارية مستعبدة.

ـ أرجو أن لا يقتلوك ويكتفوا بتعذيبك.

ـ وهل بعد فراق الرقطاء عذاب؟

ـ لو عرفوا أنك جئت وراء امرأة عند الملك فإنهم يقتلونكما معاً.

ـ ربما تريد هي ذلك أيضاً، أن نعيش معاً أو نموت معاً.

ـ وربما لا تريد، فدعها وشأنها والتفت أنت لشأنك، وهناك من النساء ما يغنيك عن هذه المرأة التي لم يكن لك بها نصيب.

ـ وهل تعتقد أن تقبل الحرة ذلك؟ وهل النصيب أن تكون العربية الحرة جارية بحد السيف، هذا شأن الحرب وليس شأن الحب.

ــ إنها حياة القصور وكثير من النساء يبعن أهلهن من أجلها.

ـ يبدو أن عملك بسوق الجواري أفسد فطرتك، إنها عربية حرة يا رجل.

ـ بل علمني ماكنت أجهله ذات يوم مثلك الآن، إن النساء يابني...

ـ أرجوك سيد حبيبيان عد إلى مدينتك واتركني أذهب خلفها.

ـ بل أذهب معك إن شئت.

ـ أريد أن أذهب لوحدي أرجوك.

ــ ربما تحتاجني فأنا أتقن الفارسية وأنت مازلت تحوم حولها ما ينقصك أكثر مما عندك، وأنا أكثر هدوءً منك، وأنت غاضب والغاضب لا يفكر بشكل سليم.

ـ لكن السفر طويل عليك سيد حبيبيان، وسأكون أكثر حكمة وهدوءً مع طول السفر.

ـ أنا مصر على مرافقتك.

ـ وأنا مصر على عودتك إلى مدينتك. ومن يدري فربما نـأتي أنا والرقطاء إليك لزيارتك هناك.

عـانق ابـن الخـراز السـيد حبيبيـان و ودعـه و بـدأ رحلتـه للرعـب المجهـول، وقـرر حبيبيـان البقـاء لأيـام قبـل العـودة لمدينة فضيل الراهب.

الفصل الرابع

قال أبو شديد: يذكر الكتاب في الفصل الرابع بشكل سريع ومقتضب عن رحلة ابن الخراز ومشاهد الطريق، حيث سار بأثر حوافر الجند، وتعرفه على أشلاء النضيرة بنت الضيزن والتي أبت أشلاؤها إلا أن تكون رقيقة كصاحبتها، وأخذت تحدثه نفسه أنه سوف يلتقي بأشلاء الرقطاء عما قليل، ولكنه كان يصرف هذه الفكرة كلما أخذت تلوح له، وأنشد على أشلاء النضيرة:

هذه أشلاءُ أم هذا دمي

أيتها الرقطاءُ يا عمري اسلمي

إن هذي الأرضَ لو تدر بما

حملتْ، مالت بخطو المجرمِ

الدمُ الأحمرُ يروي زهرها

فلذا أطبقتُ من حزنٍ فمي

فهل تريدون أن أقرأ هذا الفصل؟ إنه يتحدث عن المدن والقرى والسهول والجبال التي مر بها؟

ـ حبيب الغني: لا تهم هذه التفاصيل المأساوية المهم أنه التقى بالرقطاء أم لا.

ـ عبد الحميد المثقف: بل تهم كثيراً أنت لا تعنى إلا بالنتائج، أما علاقة المكان في الأدب و الرواية و الجمالية المأساوية فهي آخر ما تفكر فيه.

ـ حبيب: حتى المآسي جعلتم لها جمالية.

ـ عبد الحميد: أنت يا حبيب تشكل ثقلاً على هذه الأرض لا تحتمله، فكيف تحتمله أنت.

ـ مولانا: "إنا عرضنا الأمانة على السموات والجبال والأرض فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان، إنه كان ظلوماً جهولاً" إن الإنسان يحمل ما لا تحمله الأرض يا عبد الحميد، فإن لم تحمل الأرض أخانا حبيب فهو قادر على حمل نفسه.

ـ لطفي السياسي: دعونا من هذا النزاع، إن ضبط النفس أمر حيوي حتى نستمع إلى وجهة نظر المؤلف و الراوي أبو شديد.

ـ أبو شديد: حسنًا لنتجاوز هذا الفصل اختصاراً للرواية ونقرأ الفصل الذي يليه.

الفصل الخامس

وصل ابن الخراز إلى مدينة نود وحتى لا يفتضح أمره، ادعى البكم فنال شفقة الناس وعطفهم عليه، واختار السوق المسقوف مكاناً له يراقب فيه الداخلين للتسوق وللفرجة وكان في أول السوق حانوت قد تخصص في بيع رؤوس الأغنام وأرجلهم، حيث تمتد أمامه دكة كبيرة، لا يبدو أنها من صنع أحد، لقد كانت صخرة كبيرة وكل ما قام به صاحب الحانوت أنه شذبها وجعلها ملساء يرتاح عليها الجالسون، وتعلم من الخرس والصمت أكثر مما يتعلمه المتحدث، وبعد أن أتقن مهارة الحديث من صغره هاهو ابن الخراز يتقن مهارة الصمت على كبر، كان يحصل على ما يحتاجه من الحانوت، وفي الليل يأوي تحت الأشجار التي تسبق مدخل السوق، حيث يمنع رجل العسس الناس من دخول السوق ليلاً، ورغم أن السوق يجمع في النهار كل رجال المدينة وبعض نسائها، إلا أنه لم يشهد الرقطاء بين الداخلين، وظل على هذه الحالة لمدة شهرين

تعلم خلالها الكثير من الكلمات الفارسية أضافها لما عنده.

وفي أوائل أيام الشتاء أصيب ابن الخراز بحمى، ولم يكن أحد يهتم به من المارين بالسوق، إلى أن مرت به أرملة عجوز اسمها زريجبور خانم، وكان يرتعش من الحمى ويهذي وينشد كلمات لم تفهمها وظنتها هذيانا:

الكأس يدنيك من ليلي ومن سهري

يا دوحة الروح يا شمسي ويا قمري

لو كان ينفع شعري كنتُ أرسله

إليك حتى يريك السحر في صوري

لكنه مات صمتاً لن أكفنه

فصار كالريح بين الغصن والشجرِ

فقالت أليس لهذا الفتى أهل فيعتنوا به؟

فقال لها صاحب الحانوت: إنه غريب وأبكم ولا نعرف عنه شيئاً، وهو يقضي النهار على هذه الدكة، وينام خارج السوق تحت الشجر كل ليلة.

فقررت أن تصطحبه معها إلى بيتها القريب من السوق، مع بوادر دخول الشتاء وصعوبة المنام تحت الشجر، كما يحدث صيفاً، وما إن صحى ابن الخراز من الحمى عرف المرأة التي اهتمت به، فقرر أن يتحدث ولكن كصاحب عاهة حتى يفوت عليها أن تكتشف أمره.

لقد عاملت الأرملة زريجبور خانم صاحبة المنزل ابن الخراز كابنها خسرو الذي مات في معركة قبل عشر سنوات، فسألته عن اسمه، فأراد ابن الخراز أن يكسب تعاطفها، فقال لها من الآن أنا ابنك خسرو، دمعت عينا زيرجبور خانم واحتضنته، فقامت تناديه بخسرو، وعرف الجيران اسمه الجديد، ولم يكن أحد يعرف اسمه القديم في مدينة نود إلا الرقطاء إن كانت على قيد الحياة.

ومع مرور الوقت أصبح بينه وبين صاحبة البيت الأرملة زريجبور خانم ألفة سريعة، قويت من ناحيتها هي بسبب إحساسها بالوحدة مع كبر سنها، ورغبة هذا الفتى اليافع

بـأن يقضـي الوقـت الطويـل للاسـتماع إليهـا والـتعلم منهـا ، وقويت من ناحيته لأنها هـي الإنسانة الوحيدة التي اهتمت به بمرضه ، واصطحبته لبيتها كابن لها ، وبدأ يشـعر بالأمـان نحوهـا ، فهـي كـبيرة بالسـن وعـاجزة عـن القيـام بـبعض الأعمال التي تتطلب قوة عضلية ، كنقـل القش وخلطـه مـع الطـين لترمـيم السـقف مـع دخـول كـل شـتاء ، وإحضـار الخشب من السوق لموقد النار.

لقد عرف منها أشياء كثيرة حول أمـور الحكـم والنسـاء السـبايا ونسـاء القصـر ، وعـرف أنهـن لايـذهبن إلى السـوق ، وأن كـل السـوق ينتقـل إلـيهن حـين يقـررن الشـراء ، وكـان كـل صـاحب بضـاعة جديـدة أول مـا يعرضـها في القصـر ، ومـا يزيـد عـن حاجـة القصـر يعـود بـه التـاجر إلى السـوق ليعرضـه علـى عامـة الشـعب ، فقـرر دخـول القصـر بعـد أن أصـبح واثقـاً أن حبيبتـه الرقطـاء لابـد وأن تكـون إحـدى جواري الملك بعد أن عرف مـن زريجبـور خـانم أن الجميلات يأخـذهم الملـك ويـترك البقيـة لمـزاد الجـواري ، وكـان ابـن الخراز يعلم بأن الملك لا يمكـن أن يغفل عن جمال الرقطـاء حتـى وإن تلطخـت بالوحـل ، ولا يمكـن أن يغفـل عـن شـدة

سـواد عينيهـا الـتي تـثير مـا لا يثـار، ولا يمـكـن حتـى لمـن لا يحمل أدنى معايير الإحساس إلا أن يشعر بدفئها عـن بعـد، حتـى ضـمير الجـلاد الـذي اسـود قلبـه، لابـد أن يلـين أمـام بياض جبينها المرتفع، إنها لابد أن تـكـون إحـدى محظيـات الملك إن لم تـكـن المقربة له، ومن يخصها لنفسه من النساء اللواتي جاؤوا بهن من مدينة الحضر.

أخبر ابن الخراز زريجبور خانم برغبته بالعمـل في التجـارة، وأن يخــتص بمتطلبــات القصـــر دون ســواه، وأخبرتــه أن الحريـر القـادم مـن أطـراف الشـرق ومنغوليـا هـو الأكثـر رواجـاً عنـد نسـاء القصــر، وأخبرتـه أن نســاء القصـــر لا ينكشفن على الرجال ولا بد له من الاستعانة بـامرأة لتقـوم بـذلك، رغـم إحساسـه بالإحبـاط إلا أن الفكـرة مازالـت رطبة عنده وقرر في لحظة يأس وملل أن يكشف لها سـره، لعله يحظى بمسـاعدتها بعـد أن نـال عطفهـا عليـه، وفي ليلـة شـتوية الأنسـاب حكـى ابـن الخـراز للأرملـة قصـته كاملـة ورغبته باستعادة حبيبته الرقطاء.

كـان ولاء العجـائز للملـوك ولأسـيادهم يفـوق التعـاطف مـع غريب، فدخلت الريبة في صدر ابن الخراز ثم أعقبها دخول

الندم ولكنه أصر على أن يكمل ما بدأه بعد أن عرف أنه لا مجال للمراوغة بعد أن انكشف أمره بيده هو فأحس بنفورها منه، وقطعت لحظات الترقب عنده كلماتها التي وقعت على سمعه وقوع الصاعقة حين قالت:

يا خسرو يا ولدي إن من يطمع بنساء الملك ليس له إلا الموت مقطعاً.

قاطع حبيب الغني أبو شديد قائلاً وهو يبتسم لحورية: هذا كلام جميل.

ـ عبد الحميد المثقف وهو يتجهم بوجهه: هذا كلام تافه.

ـ أبو شديد: فتذكر ابن الخراز النضيرة أشلاء متناثرة، فلملم غضبه وأراد أن يستعطفها فقال:

ـ لقد أمنتك على سري يا أمي، والفتاة التي أريدها تريدني أنا.

ـ ولكن من يريدها الملك فلا إرادة لها ولا لغيرها.

ـ لقد عشت بعيداً عن حياة الملوك ولا أعلم بنظامهم، فإن كان كذلك فأنا أصرف نظري عن الأمر الذي جئت من أجله فاعذريني.

ـ حسناً تفعل يا خسرو ولن تندم إلا إذا فكرت بما لدى الملك، فهو الذي يعطي وهو الذي يأخذ، فلا تكن جاهلاً وتندم.

كانت كلمات ابن الخراز الأخيرة كفيلة بإعادة الهدوء إلى زريجبور خانم، والتي سرعان ما صدقت ما قاله، وضمن منها عدم الحديث بأمره، فنصحته بنسيان الأمر حرصاً على سلامته وأن حبيبته تعيش بالنعيم وهذا شأن كل نساء القصر فمن الأولى أن يفرح لها.

انصرف إلى السوق كعادته، ومرّ على سوق الجواري كعادته كل يوم، ولكنه اليوم يحمل في صدره إحباطاً ويأساً وحزناً، وكانت المفاجأة السارة التي بددت حزنه، وانقلب إلى فرح، حين وجد السيد حبيبيان في سوق الجواري يتحدث مع المشترين والبائعين، فأنسته المفاجأة بكمه المصطنع فصرخ به معانقاً أمام دهشة من يعرفون بأمر بكمه، وأخذه وانزوى به بعيداً، مخلفاً وراءه خبراً بدأ الناس بتناقله مع الإضافات عليه، من الخيال المنبسط حول أمر هذا الرجل الأبكم وقد تكلم فجأة، حيث

أضفى عليه البعض صفة المعجزة، وآخرون اتهموه بالمخادع الذي يخفي وراءه أمراً كبيراً.

أخذ ابن الخراز السيد حبيبيان إلى خارج السوق، وبعد أن اطمئن على أخباره، وأخبره بأن اسمه خسرو هنا، حتى يحذر أن يناديه بابن الخراز، وأخبره بقصته مع صاحبة البيت، فطلب السيد حبيبيان منه أن يتولى أمرها وأنه قادر على أن يضمن صمتها ومساعدتها له كذلك.

ذهب ابن الخراز والسيد حبيبيان إلى بيت السيدة زريجبور، فتحدثا وتعارفا وعرف حبيبيان بخبرته كيف يكسب ود امرأة بعمره، ويعرف كيف يضحكها، ويعرف أن الضحك بوابة القلب العصي، وبعد أن تعارف السيد حبيبيان وزريجبور خانم وأحست بالارتياح لهذا الرجل المجرب رغم عدم زواجه سابقاً، أحس ابن الخراز بالاطمئنان ولم يكن يعنيه ما يدور بينهما من أحاديث، ولكنه كان يشاركهما الضحك.

وعلى العشاء دخل بعض الجند بيت زريجبور خانم واقتادوا ابن الخراز دون أن يعرف سبب القبض عليه، وعبثاً حاولت زريجبور خانم والسيد حبيبيان معرفة السبب، وما كانت

إلا لحظات وابن الخراز ملقى به داخل زنزانة لا يفهم شيئاً مما يحدث، يسأل ولا يجيبه أحد، يسأل وقد نسي أنه أبكم وأنه لا يتحدث إلا مع صاحبة البيت، إن البكم لن يجديه هنا، فظل يسأل كل حارس يناوب على باب سجنه ولا يجد إلا إجابات مختلفة تجمع كلها على أنه أدرى بما صنع أو سوف يصنع، ولم تغب عن باله لحظة واحدة أن زريجبور خانم هي التي وشت به وبأمره رغم وعدها له بنسيان الأمر، وكان يسأل نفسه ولكن متى حدث ذلك؟ وقد غادرها للسوق لأقل من ساعة وعاد ومعه السيد حبيبيان ولم تكن خارج البيت وقتها، ولكن الأمر غير مستبعد في غياب الأسباب الأخرى أو جهله بالسبب الحقيقي، إن خيانتها له وإحساسه بما قد يحدث له حرمته من النوم والأكل.

ـ مولانا: الفتنة أشد من القتل يا شباب، فانتبهوا جزاكم الله كل خير.

ـ لطفي السياسي: (وهو يبتسم بوجه حورية) قد تجد الخيانة مبرراً لها.

ـ مولانا: (وهو يبتسم بوجه حورية) ومن اضطر غير عادٍ ولا باغٍ فلا إثم عليه.

ـ عبد الحميد المثقف: (وهو يبتسم بوجه حورية) للخيانة رائحة العشب تحت المطر.

ـ حبيب الغني: (وهو يبتسم بوجه حورية) أنا لا أسميها خيانة إنها الحماية بالأقوى وتفضيل الأصلح دائماً.

ـ أبو شديد: إن تعليقاتكم هذه تحرمنا لذة المتابعة ومتعة الحكاية.

ـ مولانا: (يرمق حورية بنظرة عابرة) اللذة والمتعة يا أبا شديد هي أن تعرف ما فيه صلاحك.

ـ لطفي السياسي: (ينظر إلى حورية) اللذة والمتعة هي أن يوجد نوع من المصالحة لتبادل المنفعة مع الصديق والعدو على السواء.

ـ عبد الحميد المثقف: (ينظر إلى حورية مبتسماً) اللذة والمتعة حين تتسل اللذة من غمد المتعة فيكونان شيئاً واحداً كما يندمج رجل شديد المتعة بامرأة شديدة اللذة.

ـ حبيب الغني: مثل حورية وأبو شديد.

ـ عبد الحميد المثقف: جائز ويمكن أن يجد أبو شديد لذته مع امرأة أخرى وتجد حورية متعتها مع رجل آخر، كل شيء جائز.

ـ حبيب الغني: لأول مرة أشعر بأنني أتفق معك.

ـ المثقف: آه.. لو تدري كم أحزنني هذا القول، إن اتفاقي معك يعني سقوطي بشيء حتى أكون قد نزلت إليك.

ـ حبيب الغني: ولم لا تقول صعودك بشيء يا بياع الكلام.

ـ لطفي: هل تذكرون يا شباب أيام الابتدائية؟

فالتفت بعضهم إلى بعض وسكت الجميع، وكأن الطير حط على رؤوسهم.

استغربت حورية من صمتهم المفاجئ فقالت: أكمل يا أبو شديد الحكاية يبدو أن خيانة المرأة لابن الخراز فتحت شهية الحوار عند الأصدقاء.

فأكمل أبو شديد: اشتهر ابن الخراز في السجن بعزوفه عن الناس والطعام وإطالة التفكير ليلاً والنوم قليلاً نهاراً، وكان بعزلة عن بقية المساجين، كما اشتهرت الرقطاء بالبلادة وعدم قدرتها على التعلم في القصر والعزلة مع الطين و الحجارة.

وكان من عادة الموابذة وخدمة النار أن يزوروا المساجين لتذكيرهم بطقوس دينهم ويأخذوا التائبين منهم للخدمة في المعابد، وكان ابن الخراز قد علم بهذه الزيارات، فكان يطلب النار ويقوم بطقوس العبادة لها بين فترة وأخرى، فأخبر أحد الموابذة كبير الموابذة بأمر هذا السجين غريب الأطوار، فهو لا يتحدث مع أحد ويقضي جل وقته بالعبادة فقط، وفي إحدى زيارات كبير الموابذة للسجن لاحظ كما قيل له عزوف ابن الخراز عن الحديث مع المساجين، وعدم إقباله على الطعام الذي يقدمونه للمساجين، هدية مباركة من المعبد، وكان منشغلاً بمشعل نار أمامه، فدخل معه بحوار طويل اكتشف من خلاله كبير الموابذة سعة اطلاع ابن الخراز ومعرفته بالديانات والمعتقدات في فارس و في المناطق المجاورة، فقرر الاستفادة منه في المعبد في خدمة النار، فأخذه كبير الموابذة معه إلى المعبد، بعد أن أمر بإطلاق سراحه بعد سنة كاملة قضاها في السجن، لا يعرف فيها سبباً لوجوده، ولم يزره أحد بالسجن، وكانت أقسى اللحظات عليه حين

يتذكر الرقطاء، فكتب الأشعار لها وناجاها، لكن لم يصلها شيء منه.

دخل المعبد وليس في رأسه شيء إلا الوصول إلى الرقطاء، فهو لم يأت إلى هذه البلاد ليأكل ويشرب، ولا ليتنعم أو يتعبد فيها، وسرعان ما اكتشف ابن الخراز بأن كبير الموابذة قد أحاط نفسه بمجموعة من الموابذة المسالمين، فلا طموح لديهم ولا إبداع ولا رأي لهم، ربما لتسهل قيادتهم من كبير الموابذة، فهم أقرب إلى القطعان يسيرون حيث يأمرهم كبيرهم، ولا يتكلمون إلا ترديداً لكلامه، حتى أن ابن الخراز أدرك أن إعجاب كبير الموابذه به، هو إعجاب برجل لا يشكل خطراً عليه، فهو الخارج من السجن لا طموح لديه سوى العيش بأمان، وسرعان ما أصبح الموبذ خسرو ملازماً لكبير الموابذة في كل خطواته، ومؤيداً له بكل آرائه، ومبدياً رأياً له حين ينفردان معاً، وكان يتجنب الاختلاف معه أمام الموابذة، وهذا ما زاد إعجاب كبير الموابذة به.

وبعد ثلاثة أشهر وبفصل الربيع استأذن من كبير الموابذة بالخروج من المعبد لأيام يقضي بها أموراً كثيرة معطلة،

فلم يكن قادراً على كتمان حرقته وغصته، فذهب لزيارة زريجيبور خانم لمعرفة سبب سجنه منها، فهي الوحيدة القادرة على تبديد قلقه حسب ما كان يعتقد، ولكنها استقبلته بفرح شديد، لا ينم إلا عن حب حقيقي، وفرحة أم بولدها واكتشف أنها قد تزوجت من السيد حبيبيان وأخبرته بسبب سجنه وما سبقه وما أعقبه من أقاويل حول شخصيته، وإنه تكلم بعد أن كان أبكم، وهذا ما أثار الريبة في نفوس الناس والعسس، وإنها و زوجها حاولا زيارته مراراً ولكنهما منعا، وعرف منها أن زوجها يعمل بسوق الجواري فذهب لزيارته.

لقد تغير شكل ابن الخراز كثيراً حيث طالت لحيته كثيراً و تساقط شعر رأسه، حتى بدأ أكبر من عمره كثيراً، وعند مدخل السوق استقبله السيد حبيبيان بالأحضان وأعاد له سبب سجنه مثلما أخبرته زريجبور خانم، واعتذر له لعدم زيارته في السجن حيث إنهم منعوا عنه الزيارة حتى يستوضحوا خطره ويعرفوا خيره من شره. لقد بدا ابن الخراز أكثر نضجاً و وعياً حتى اعتقد السيد

حبيبيان أنه تناسى أمر الرقطاء، فسأله ما أخبار قلبك هل تعافى؟ وهل تعلمت من السجن النسيان؟
فقال ابن الخراز لقد تعلمت من الرقطاء ما أغناني عن أي علم سواه فأنشد:

قد علمتني ما أريد من الحياة

وما أريد من الألمْ

لا تكتفي أبداً بلا

لا ترتضي أبداً نعمْ

هي في تكبرها اعتلاء

هي في تواضعها ارتقاء

في كل حالتها قممْ

ابتسم السيد حبيبيان وقال: له لو لم أعرفك لاستنكرت عليك هذا الحب، ولكنني سأعرفك مساء اليوم على أحد أعيان المدينة، ستعجبه أحاديثك وستعجبك وليمته وشرابه، ولتنس أيام السجن والعذاب.
وقبل حلول الليل اصطحبه لزيارة السيد سهراب أحد أعيان المدينة، للسمر ليلاً ولينسيه أيام السجن، وحين

وصلا عند مدخل المنزل الفخم الذي تحيط به حديقة واسعة، ضاقت بما تحمله من أشجار الفاكهة، ومن رائحتها الزكية وما يبثه الربيع من الجمال والبهجة، استقبلهم حارس البيت أفضل استقبال، وأوصلهم إلى مدخل المنزل، وما كان ابن الخراز راغباً بمغادرة الحديقة و رائحتها التي افتقدها في السجن، وقد ساوره شعور أن السجن لا يحجب الحرية فقط بل يحجب عن الإنسان حاسة الشم ومتعة النظر والاستماع، إنه مصادرة لكل الحواس في الإنسان، فلا يسمع ولا يرى ولا يشم ولا يلمس ما يريد.

وعند مدخل المنزل استقبلهم السيد سهراب صاحب المنزل بابتسامة مصطنعة لم تكن لتغيب عن معرفة ابن الخراز لها، حيث تخفي ابتسامته حزناً كبيراً، و رغم أحاديثه عن سفراته إلى الهند وما وراءها، والحكايا الطريفة التي يأسر بها عقول مستمعيه، إلا أن ابن الخراز لاحظ أنه لم يستطع أن يغير من ملامحه الحزينة، وما كانت ابتساماته المتفرقة إلا مجاملة لضيف عنده.

وبعد تناول الشراب والطعام أحس السيد حبيبيان بالنعاس فقرر الذهاب، واعتذر لابن الخراز عن مرافقته أمام إلحاح السيد سهراب ببقائه معه لبعض الوقت، حيث إن السيد سهراب يشعر بالوحدة فهو غير متزوج رغم أنه في العقد الرابع، فغادر السيد حبيبيان وبقي الاثنان.

كان ابن الخراز يبحث عن أي صديق قد يساعده للوصول إلى الرقطاء، وبعد أحاديث متفرقة سأله لم لم تتزوج يا سيدي إلى الآن؟ ولديك كل شيء إلا الزوجة؟

كان سؤال ابن الخراز هو الماء الذي ابتلت به روح السيد سهراب، فأفاق من استرخائة الشراب الذي امتلأ به من أول الليل، فأجابه قبل ستة أشهر فقط فكرت في الزواج، وإن لم أستطع الزواج بمن أريدها، فلن أتزوج أبدًا.

فقال ابن الخراز: هو الحب إذن؟ وما الذي يمنعك يا سيدي؟

ـ إنها متزوجة.

ـ ألا توجد غيرها؟

ـ لا أريد إلا تلك المرأة التي رأيتها، ولم أسمع صوتها إلى الآن، أرجوك يا خسرو لا تعتقد بأني مجنون أو سكران،

هي الحقيقة التي منذ ستة أشهر وأنا أحرص على بقائها حية ﮕ صدري خشية من النسيان أن ينتشلها مني.

ــ لو علمت هذه المرأة بحبك هذا، ما أظنها إلا جائتك حبواً، فلا يسعد المرأة شيء قدر حب رجل صادق مخلص لها، وما الذي لديها وليس لغيرها؟

ـ لديها ما ليس لغيرها حقاً، هي هكذا بعيني.

ـ فمن تكون سيدي؟

ــ إنها زوجة حارس المنزل الذي يعمل عندي يا خسرو، رأيتها قبل ستة أشهر من هذه النافذة، وقد أحضرت الغداء لزوجها وأنا أفكر فيها منذ ذلك اليوم ولا أعرف ماذا أفعل، ولا أريد أن أصرفها عن بالي، وربما لا أستطيع أن أصرفها.

فقال له ابن الخراز: إن ما تتحدث عنه هو الحب يا سيدي وهذا ما جاء بي من آخر الدنيا إلى هنا، ها أنت مولع بامرأة رأيتها عن بعد فكيف بمن أحب ولا مس وقبَّل امرأة، إن جرحي أكبر من جرحك وحبي أكبر و لكن الحب لا يقاس بالكبر والطول والوزن، فمن أحب فقد تساوى مع كل المحبين.

سهراب: أنا لا أتخيل أن أقبلها ، هذا ما أدفع نصف ثروتي مقابله.

ابن الخراز: قل لي يا سيدي أي الرجال زوجها؟

فقال سهراب: رجل لا يتميز عن سواه بشيء، حريص على عمله ويتقنه، ولكنه يبدو بخيلاً.

ابن الخراز: هل قلت بخيلاً؟ هل تعني ذلك؟ لو تعلم كيف يفسد البخل نفوس البشر وعلاقاتهم، وكيف يطرد الحب والأمان، ويولد الحقد والانتقام في النفوس.

سهراب: نعم أظنه بخيلاً، فرغم ما أغدق عليه من المال والعطايا، فإنني لا أرى نعمتي عليه، فلا أراه يغير ملابسه القديمة إلا نادراً، وكم أعطيته من ملابس جديدة لا أراه يرتديها.

- وهل عرفت زوجته بحبك لها ورغبتك بها؟

- يبدو أنك لست مصغياً لي إنها لم تشاهدني يا خسرو، لقد رأيتها من هذا الشباك الرائع الذي أراني أجمل صورة رأيتها في حياتي، ألا ترى اهتمامي بهذا الشباك دون غيره؟ انظر إلى لونه والورد المعلق حوله، كل هذه الزينة لها، لذاكرة وجهها الجميل الوادع.

انتبه ابن الخراز إلى لون الإطار المغاير لبقية الشبابيك الأخرى في الغرفة، وقد حاصره بالصور الجميلة، وجعل كرسيه مقابلاً له تماماً، وكراسي الضيوف على الجانبين منه.

فقال له بعد لحظة تفكير: أنا أساعدك في الحصول عليها، فهل تساعدني في الحصول على من أريد؟

ـ لك مني كل ما تريد وكل مساعدة تطلبها إن كنت جاداً، أي مال تريد أي شيء تطلبه فهو من الآن لك يا سيد خسرو.

فقال ابن الخراز: حسناً سأخدمك بهذا الأمر، ولا أريد مالاً، سأقول لك ما أريد بعد أن تنال ما تريد.

صرخ حبيب الغني وهو ينظر إلى حورية صرخة جعلت كل ما في الغرفة منتبهاً.

ـ أين ابن الخراز هذا ليساعدني في هذه اللحظة وأعطيه كل ما يريد؟

ـ عبد الحميد المثقف: ومن قال لك إن ابن الخراز يريد مالاً.

ـ لطفي السياسي: يريد ما يريد ، لابد من الوصول إلى الهدف بأي وسيلة.

ـ مولانا: لقد أعطى الشرع الحق للمرأة بطلب الطلاق واختيار الأصلح لها ، فليعرض على زوجها تطليقها.

ـ حورية: دعك منهم يا أبو شديد وأكمل ، فهم يعلقون على كل شيء ، وأين الشرع في تلك الفترة ؟

عبد الحميد المثقف: مهلاً يا حورية إن هذه القضية مهمة ، لابد أن نعترف بحق المرأة في الاختيار.

التفت أبو شديد إلى حورية مبتسماً وقال: حتى وإن اختارت من تريد ربما تكون لديها هناك رغبات أخرى.

ـ حورية: مثل ماذا يا أبو شديد.

ـ أبو شديد: إن المرأة لا ترى من تحب مكتملاً ، فحين يكون وسيماً ، تقول ماذا لو كان غنياً أيضاً ، وإن كان غنياً تقول ماذا لو كان صاحب منصب، وإن كان كذلك تقول هو مكتمل ولكن ماذا لو كان من العائلة الفلانية بدل العائلة الفلانية ولن تنتهي، أما الرجل إذا أحب فإنه يرى محبوبته أكمل نساء الأرض.

حورية: ومنكم نستفيد يا أبو شديد.

ـ حبيب الغني: يا أبو شديد لا يضر المرأة أن تعيد النظر إذا كان ذلك في مصلحتها.

ــ لطفي السياسي: يجب أن تكون نظرتها بعيدة، وتغير الأهداف نظراً للمتغيرات هذا أمر لا تعاب عليه أي امرأة يا أبو شيديد.

ـ مولانا: بل بقاؤها مكرهة أمر لايقبل المنطق به.

ــ لطفي السياسي: هناك أشياء يُكره عليها الإنسان، فليست كل الأمور بإرادته، مثل أيام الابتدائية إذا تذكر يا مولانا.

ــ مولانا: أخزاك الله يا لطفي على أسئلتك وذكريات الابتدائية، نعم كلنا نذكر فلتغير الموضوع رجاء.

ـ عبد الحميد المثقف: دائماً هناك الأفضل في كل شيء، والانتقاء الواعي سمة المبدعين.

ــ حورية: إلى أن ينتهي هذا الحوار، وأيام الابتدائية، ونقاشكم لنظريات أبو شديد أستأذنكم قليلاً.

أصر الجميع على أبو شديد أن لا يكمل الرواية حتى تأتي حورية، وقالوا لن نكمل الرواية حتى تعودي، وكأن لسان حالهم يقول إن وجودها في هذا الوقت أهم من أي وقت

مضى، وأبو شديد شارد الذهن بالرواية لا يرفع عينيه ولا يشاركهم الحوار.

وبعد دقائق تبادل فيها الأصدقاء أحاديث جانبية حول فكرة أبو شديد، جاءت حورية وقد خلعت التاج الأبيض الذي أتعبها بثقله وقد كشفت شعرها فأصبحت أكثر جمالاً، مرتدية فستان النوم مغطى بالروب الأبيض، وكأنها تقول إنها معلقة بين أن تعرف نهاية الرواية وبين رغبتها بمغادرة أصحاب زوجها لتنفرد بزوجها في أول ليلة معه، بعد أن انتصف الليل وهدأت المدينة.

ـ حورية: وماذا حدث يا أبو شديد كيف حصل سهراب على زوجة الحارس.

ـ مولانا: لقد أصر الإخوة الأفاضل على أن لا نكمل الرواية إلا حين تأتين يا عروسة العرايس.

ـ أبو شديد: فقال ابن الخراز له، افعل ما أطلبه منك دون سؤالي عن الأسباب، وسأحضر لك زوجة الحارس، أما إقناعها بحبك وزواجك فهذا منوط بك.

فقال سهراب: فقط لتأتي الشمس هنا وأنا كفيل بالباقي، يبدو أنك واثق مما تقول يا سيد خسرو، إن هذه الليلة من أسعد أيام حياتي، وأين ستذهب؟

قال ابن الخراز: لا أعلم أين تحديداً ولكن بين بيت السيد حبيبيان والمعبد.

فقال سهراب: لدي منزل خارج المدينة في البساتين لم أسكنه منذ فترة طويلة، لم لا تسكن فيه؟

فقال ابن الخراز: سأنتظرك فيه حين تأتي أنت ومن تحب.

سهراب: تنام هذه الليلة عندي وغداً صباحاً نذهب معاً إلى هناك، ولكن ما هي خطتك أفرحني يا خسرو.

فقال له ابن الخراز: أحضر الحارس إلى هنا واطلب منه أن يحضر لك كل يوم امرأة جميلة تسهر معك، وأرسله ليحضر لك عشاء، واجعله يختار هو العشاء، وافعل ذلك كل ليلة، وحين تأتي لك المرأة لا تتحدث معها مهما حاولت، وحاول أن تنشغل عنها بأي شيء، ثم اجعلها تأخذ العشاء معها، وأكرمها بالمال، وإن سألك الحارس أو المرأة فقل بأنك تحب أن يجلس معك أحد، ولا تريد شيئاً غير المشاركة بالجلوس، وفي الصباح ذهبا معاً إلى منزل السيد

سهراب في البساتين، وعاد سهراب ليعمل ما أوصاه ابن الخراز.

وفي المساء طلب من الحارس ما أمره به ابن الخراز، بأن يأتي له بامرأة جميلة، تسهر معه، وجاءت أول ليلة امرأة جميلة، وبقيت فترة طويلة لا يكلمها سهراب ولم يشرب معها، ولم يجبرها على الشراب، بل شرب لوحده وطلب منها سهراب أن تأخذ معها العشاء وتغادر بعد أن أعطاها مبلغاً كبيراً من المال، فخرجت وحين مرت على الحارس أخبرته أن سيده لم يكلمها ولم يلمسها.

وفي الليلة الثانية جاءت امرأة أخرى، وفعل الشيء نفسه، وحين حاولت أن تتقرب منه ردها عنه، وظل يشرب لوحده وينشغل بالقراءة عنها كما أوصاه ابن الخراز، وبعد حين من الوقت أمر الحارس بشراء عشاء على ذوق المرأة وإحضاره، وبعد العشاء خرجت المرأة وقالت للحارس ما حدث معها من سيده، فدخل الحارس على سيده وقال له:

- ألم تعجبك المرأة يا سيدي؟

ــ فقال: نعم أعجبتني كثيراً، لقد كانت هادئة ولا تتكلم.

ـ ولكنك يا سيدي لم....

ـ عليك بإحضار النساء فقط وليس لك شأن بي، وحاذر أن تحضر امرأة أكثر من مرة لي، أنا لا أحب أن أجلس بمفردي حين أقرأ.

كان ابن الخراز يتابع سير خطته بدقة، وسهراب يتقن عمله جيداً.

لقد أحضر الحارس عدداً كبيراً من النساء اللواتي يعرفهن، وكل واحدة تخرج لتقول الشيء ذاته، بأنه لم يلمسها ولم يحادثها ولم يفعل شيئاً غير القراءة، وتخبره بالمبلغ الكبير الذي حصلت عليه، وعن أمنياتها أن تأتي مرة أخرى ولكن تعليمات سيده أن لا يكرر النساء له.

وبدأ السيد سهراب بزيادة المال الذي يمنحه للمرأة دون أن يحدثها، وحين عرف الحارس بأن المال الذي يمنحه السيد سهراب للنساء كثير، فكر الحارس بالحصول عليه دون عناء، حيث إن الأمر لا يتعدى الجلوس بصمت والعشاء والمغادرة بالعشاء وبمبلغ كبير، فذهب إلى زوجته الجميلة، وحكى لها قصة سيده سهراب، وطلب منها أن تذهب إلى سيده بالليل لتسهر معه، فترددت كثيراً ورفضت ولكنه

ألح عليها وأصر بأن تذهب، فوافقت مرغمة أمام إلحاح زوجها وأمام بساطة الأمر كما بينه لها.

دخلت زوجة الحارس على السيد سهراب الذي انتفض لها، وأمر الحارس بالانصراف وقال: ما اسمك؟

ـ رند يا سيدي.

ـ إنه أجمل اسم لأجمل امرأة رأيتها، وقد كنت أظن أن المعاني الجميلة ليست لها أسماء تحملها.

وبعد لحظة صمت منها وتأمل منه قال لها القصة كاملة، وكيف أحبها حين شاهدها قبل ستة أشهر، وأخبرها برغبته بالزواج منها وأن زوجها لا يستحقها حين أرخصها من أجل المال، فانبهرت بما سمعت وأحست بحقارة زوجها، وأعجبت بحب سهراب لها، الذي جعله يدفع الكثير من المال من أجل الوصول إليها، وعرض عليها الانصراف والعودة إلى بيتها إن لم توافق، وبأنه لن يلمسها دون رغبتها، ومن غير حب منها له كما يحبها.

فترددت ثم قالت دعنا نفكر قليلاً، فهذا الأمر لا يمكن الاستعجال بها، وبعد دقائق ممتلئة بالحب الصادق من سهراب، ومن حديث عينيه الذي لا يكذب، وافقت رند

على الذهاب معه، فطلب من زوجها الحارس أن يحضر العشاء حسب اختياره، وكان الحارس يخطط لما سيشتري من العشاء، لأنه يعرف بأنه سيكون من نصيبه هو وزوجته، فخرج فرحاً مبتسماً وزوجته تراقب ابتسامته باحتقار منها له، فلم تكن ملامحه تحمل أي مشاعر الندم أو الغيرة عليها وهي بغرفة واحدة مع رجل غريب عنها، مما بدد مشاعر التردد عندها، وأثناء ذهابه لإحضار العشاء، غادر سهراب ورند المنزل إلى منزل البساتين خارج المدينة، حيث يسكن فيه ابن الخراز منتظراً نتائج نجاح خطته، وحين وصل الاثنان استقبلهم ابن الخراز الذي أصبح صديقاً مقرباً إلى سهراب، وتزوج الاثنان وأقام ابن الخراز في مرفق خاص بالمنزل، ليكون قريباً من سهراب الذي لن يتوانى عن مساعدته، وكان يقضي النهار بين المعبد مع كبير الموابذة الذي ازداد إعجابه به مع مرور الأيام وبين سوق الجواري مع السيد حبيبيان وكان لا يبخل عليه بالنصائح لنجاح عمله.

وهنا انتهى الفصل الخامس يا شباب، وبقيت خمسة فصول فقط.

ـ حبيب الغني: هذا هو واقع الحال، الغني يجب أن يحصل على كل شيء بماله.

ــ لطفي السياسي: إنها الخديعة ياصاحبي وهذا شأن السياسة، الغاية تبرر الوسيلة.

ـ عبد الحميد المثقف: بل هو الأسلوب الذي اقتنعت به، فلو لم يقنعها لما حدث شيء.

ـ مولانا: لقد فكرت رند بما فيه مصلحتها، فماهو رأي عروستنا حورية؟

ـ حورية: أكمل يا أبو شديد بدأ النعاس يداهمني.

ـ أبو شديد: اذهبي للنوم إذا أردت ذلك يا حبيبتي ونكمل القصة غداً.

ـ المجموعة: إنها لا تريد النوم يا أبو شديد أكمل الرواية.

ــ حورية: حسناً أكمل يا أبو شديد ولننته من هذه المسرحية.

ــ أبو شديد: أية مسرحية، لابد أن تحترمي وجودي وأصحابي، وإن لم يعجبك فاذهبي إلى غرفتك حالاً.

ـ المثقف: إن أبو شديد لا يعني مايقوله يا حورية، وكل ما في الأمر أن لكل إنسان نصيباً من اسمه، وهذه الشدة من

اسمه لا أكثر، فهو هكذا منذ أيام الابتدائية بالمدرسة ولم يتغير، أليس كذلك يا شباب؟

أحست حورية بالمهانة لصراخ أبو شديد عليها أمام أصحابه وفي ليلة عرسها الأولى ولكنها آثرت أن تبتلع الموقف حتى لا تشعر بصغرها أمام نفسها وأصدقائه، وقدم كل واحد منهم تعليلاً للموقف يرضي غرور حورية فقال لطفي السياسي:

ـ إنني أرى أن هناك تناقضاً بين الإنسان واسمه فكم من إنسان اسمه جميل وتجده قبيحاً، ومن اسمه نبيه تجده غبياً، حتى من اسمه أيمن تجده أشول في الغالب، إلا أنت يا حورية كسرت القاعدة.

ـ مولانا: وماذا تقول عن عروستنا الجميلة حورية والتي بشرتها يحفظها الله ويحميها ناعمة ورقيقة، كمن تأكل الزبد والمخ وشهد الأبكار من النحل الجبلي، ولكنها لاتشرب الخمور والعياذ بالله، كما تفعل تلك الملعونة النضيرة بنت الضيزن، التي باعت أهلها من أجل ذلك المجوسي.

ــ عبـد الحميـد المثقـف: يـا مولانـا إن حوريـة رائعـة حـدَّ الأكاذيب وجميلة حدّ الخرافة.

ـ حورية شكرًا لكم جميعًا، هل تسمح يا أبو شديد الآن أن تكمل الرواية لنعرف كيف ساعد سهراب ورند ابن الخراز.

الفصل السادس

انفرجت أسارير أبو شديد وابتسم بوجه حورية وقال:
يقول الكاتب في هذا الفصل السادس عن رحلة ابن الخراز:
كان ابن الخراز على تواصل يومي مع سهراب، وكان يشهد وجهه المتهلل بوجود رند معه، وكان ذا جاه ومال، وكان غنى الرجل تصريحاً كافياً له ليدخل إلى قصر الملك ويخرج وقت يشاء، ويترتب على ذلك زوجته أيضاً فهي، من المصرح لهن بالدخول على نساء الملك والجواري ومجالستهن، وكانت رند هي النعمة التي كان يبحث عنها ابن الخراز، فطلب منها زيارة الجواري والبحث عن جارية عربية احضرت قبل أكثر من سنة من مدينة الحضر، اسمها الرقطاء، وكل ما أراده هو أن يعرف إن كانت موجودة أم لا.

دخلت رند القصر لأول مرة بحياتها، فقد انتقلت من زوجة حارس فقير، إلى زوجة تاجر له سمعته، وبدأت بالتعرف على النساء والجواري، حاملة في كل زيارة الهدايا الثمينة للتقرب منهن، فلا شيء يقرب المرأة من المرأة أو الرجل من المرأة مثل الهدايا، هذا ما أخبرها به ابن الخراز الذي عكف في المعبد متقرباً من كبير الموابذة لعله يحظى بلقب الموبذ رسمياً، فما زال لقبه خسرو العابد، وبدأ في الصعود مراتبَ في المعبد بالذكاء والحيلة، وأحياناً بالخبث والدهاء والنميمة.

بعد عدة زيارات لرند تعرفت على الرقطاء من أوصاف ابن الخراز لها ومن معرفة قصتها من بقية النساء، ولكن اسمها لم يكن عربياً كما قال لها ابن الخراز، حيث كان اسمها صافيناز كما كان الملك قد أطلق عليها هذا الاسم، فعادت وأخبرت سهراب بما عرفت، والذي أرسل في طلب ابن الخراز ليفرحه بالخبر، متمنياً أن يكون قد خدمة بما يليق وخدمته له، وما إن وصل ابن الخراز إلى بيت سهراب، حتى قال له: رند لديها ما تقوله لك، ولا

أعرف إن كان سيفرحك أم سيحزنك، فقال ابن الخراز: تكلمي يا رند خانم، ماذا لديك؟

فقالت ضاحكة: إن البنت التي سألت عنها من أجمل الجواري ولكنها معزولة عن البقية ولا تكلم أحداً، ولا تتحدث الفارسية رغم أن اسمها صافيناز، ولا تختلط مع أحد وهزيلة جداً، فربما تكون مريضة فلم يخبرني عنها أحد شيئاً، كل ما قيل لي إنها منذ سنتين وهي على هذه الحالة، وكل ما تعمله هو النحت وصنع تماثيل، حيث يبدو أنها بارعة بذلك، فتقضي ساعات النهار الطويلة بالنحت والصلصال، وقيل لي بأن الملك أعجب بأعمالها وأمر بتوفير كل ما يلزمها من معدات الفن والنحت، وهذا كل شيء.

تجمدت أطراف ابن الخراز فقعد على الأرض، لم يشعر بأية قدرة لقدميه على حمله فنزلت دموع الفرح وألم انتظار سنتين ليسمع هذا الخبر، وتأكد بأنها هي الرقطاء التي تتحدث عنها رند، فهو يعلم بمهارتها بالرسم والنحت، واسترجع كل ما كان من الرقطاء وحيويتها، فحاول سهراب أن يخفف عنه، تحدث كثيراً ولكن ابن الخراز

كان ساهماً شارد الذهن، مرت لحظات طويلة ليلتفت ابن الخراز للسيد سهراب ورند باسماً، وقال حان وقت العمل إذن، فقال سهراب أي عمل يا خسرو أنت تتحدث عن جارية الملك، وكما فهمت من رند بأن الملك يعطي صافيناز اهتماماً خاصاً.

كانت كلمة السيد سهراب كفيلة بإعادة ذاكرته لما قالته له السيدة زريجبور من قبل، إنها إذن جارية الملك، ويتذكر أن هذه الكلمة كلفته سنة في السجن، فحاول تغيير اهتمامه بها حتى يجد الوسيلة لإقناع سهراب و رند، دون أن يزحزح ولائهما للملك، فلم يكن مستعداً للبقاء سنة أخرى في السجن على نية التفكير فقط بجارية الملك.

وبعد أحاديث تناولت حبل رند، الذي بدأت علاماته عليها، وماذا سيسميان الطفل القادم، وكانت فرحة ابن الخراز ناقصة حين أخبره سهراب بأنه سيسمي طفله القادم خسرو تعبيراً عن حبه لخسرو، وكانت رند أكثر سعادة بهذا الاسم، فلم تنكر عليه مساعدته لها ولزوجها بالفرحة التي تعيشها.

طلب ابن الخراز من رند أن تقوم بتسليم رسالة للرقطاء بالسر، وأكد لها بأنه ليس بها ما يريب فهي رسالة سلام لها فقط واطمئنان على حالتها، فوافقت رند بعد أن رأت إشارة من سهراب بإيماءة من رأسه بالموافقة، فطلب منهما ابن الخراز اللفافة ومحبرة، وخرج إلى الحديقة ليكتب رسالة لا تفهمها إلا الرقطاء، تحسباً لو وقعت بيد غيرها، وترك الزوجين لوحدهما في الغرفة.

بعد دقائق قليلة عاد إليهما ابن الخراز يحمل اللفافة وقدمها لرند، فأخذها السيد سهراب فوجدها مكتوبة باللغة العربية فلم يفهم شيئاً منها، وحين سأله عن مضمونها، أخبره ابن الخراز بأنها عربية ولا تعرف لغتنا، وهي رسالة سلام لها من أهلها يطمئنون عليها فيها.

حملت رند صباح اليوم التالي الرسالة وبحذر كما أوصاها ابن الخراز، و أوصاها سهراب بأن تنتبه جيداً، فإذا ما ارتابت من شيء تمزق الرسالة أو تنكر علاقتها بها، وما إن وصلت إلى جناح الجواري في القصر، اقتربت من الرقطاء وكانت بعزلتها، تصنع تماثيل من الطين الذي

وقفت تراقب أصابعها الماهرة في تحويل الطين الغبي إلى حركة وحياة بمجسمات تكاد أن تكون ناطقة.

حورية: ماذا كتب لها في الرسالة يا أبو شديد؟ لم تقل لنا.

أبو شديد: اصبري قليلاً ستعرفون كل شيء.

فأكمل أبو شديد القراءة: وفي غفلة من الجميع ألقت عليها اللفافة وذهب لزاوية أخرى من الغرفة تراقب ردة فعلها، بقيت اللفافة لفترة من الزمن بحضن الرقطاء، ولم تهتم بفتحها، فزادت مخاوف رند فاقتربت منها، وأشارت لها بعيونها أن تفتح اللفافة وتقرأها، وكانت عيون رند تشع حباً وصدقاً وخوفاً، وذهبت مرة أخرى بعيداً عنها في زاوية الغرفة، فاستأنست لها الرقطاء، وفتحت اللفافة وقرأت، وكانت عيونها تريق الدمع من الفرح على اللفافة:

هل تسألين عن الخراز سيدتي

ما زال يحفر حول القصر خندقهُ

قد جاور النار كي يطفي حرارته

بدل الاسم عكس الربح ينطقهُ

إذا العليل تمادى في حرارته

فإن في النار صدراً ليس يحرقهُ

مازال للمس عطرٌ في أنامله

قد أسرج الشوق حتى كاد يسبقهُ

فصاحبي الرند إن العطرَ مؤتمنٌ

كي لا يرى البعدَ في كفين يخنقهُ

تمالكت الرقطاء أنفاسها ومسحت دموع الفرح التي بللت وجنتيها، فأشارت لرند لتقترب منها، فنادتها باسمها وقالت: رند خانم شكراً، أراك غداً، وقبلت اللفافة أمامها لتعرف منها بأن الرسالة قد وصلت إلى المرأة المقصودة، وأنها قد فهمت محتواها، لتشعر رند بالأمان.

وكانت كلمة شكراً وأراك غداً، من الكلمات القليلة التي تعرفها الرقطاء، وفرحت رند بأن مهمتها قد تخضبت بالنجاح، وقبل أن تسألها الرقطاء أي شيء خرجت مسرعة، خشية أن يحدث ما لا يريد لها زوجها وما لا تريد، فهي في حرم نساء الملك.

حين قامت رند بإعطاء اللفافة للرقطاء، أعادت لها الحياة، فلم تتمالك الرقطاء نفسها من الفرح، حيث إنها لم تكن تعيش على أمل اللقاء به ثانية، كانت تعرف أن الموت مصيرها إن حاولت الهرب، والمهانة نصيبها إن لم تمت، ولكن زيارة رند لها جددت بها الأمل ثانية، وزرعت بها أملاً من العدم.

فهمت الرقطاء رسالة ابن الخراز، بأنه يحاول دخول القصر، وعرفت منها بأن اسمه خسارة أو خاسر أو خسران، ولمعرفتها بأسماء الفرس من الحرس عرفت بأنهم لا يعرفون الأسماء العربية وبأن أقرب الأسماء هو خسرو، وعرفت بأنه متواجد بمعبد النار بصفة دائمة من كلمة جاور، ولا يجاور النار إلا الموابذة والعاملين على خدمة النار، وعلمت بأن رند مؤتمنة على سرهما، فيمكنها أن تنقل لها ما تريد لابن الخراز، وستجد الطريقة التي تلتقي بها فيه، حتى لو كانت بالمعبد المقدس.

كانت رند الرسول بين ابن الخراز والرقطاء، وبدأت تشعر بالأمان أكثر مع مرور الأيام، وكان سهراب أسعد رجال فارس بزواجه من رند، وبما يحققه من خدمة

لخسرو الذي ساعدة على زواجه من رند، وكان السيد حبيبيان أقرب الأصدقاء لابن الخراز الذي لا يغادر المعبد إلا لزيارته أو زيارة سهراب، والرقطاء المنزوية التي لا تكلم أحداً بدأت بتعلم الكلام من أجل أن تفهم رسائل رند الشفوية التي تحملها لها من ابن الخراز، وكانت تقضي جل يومها بممارسة فن النحت وصناعة التماثيل، حيث كان الفن بجميع أنواعه مباحاً لنساء القصر فقط، وكن يشجعن عليه، وقد اشتهرت تماثيلها في القصر، وبينما يفكر ابن الخراز بطريقة لزيارتها أو إخراجها، صدمته رند، حين قالت له بأن صافيناز تقول لك أدركها يا شهاب، فقد طلب منها الملك أن تصنع له تمثالاً عارياً يضعه في غرفة نومه، لا يراه إلا النساء في غرفته، وهذا ما يوجب على الرقطاء أن تجالسه عارياً، وهذا ما كانت تحذره طوال فترة إقامتها، وإنها قد طلبت منه أن يمهلها أياماً لتستعد له بالمواد التي ستستخدمها في صناعة تمثاله، فأمهلها أياماً يقضيها هو في زيارة لقصره في الشمال، ويعود بعدها لصناعة التمثال على يديها، بعد أن رفض

كـل أعـذارها بتكليـف مـن هـو أقـدر منهـا مـن الرجـال المتخصصين بحجة أنه لن يتعرى أمام رجل.

حين علـم ابـن الخـراز بهـذه الأخبـار فكـر بطريقـة عاجلـة لإخراجهـا مـن القصـر، ومـن ثـم الهـرب بهـا خـارج فـارس، فأعطاها شراباً أخذه من أحد العطارين، يصيبها بمـرض الصـفراء، وأوصـى رنـد أن تعطيهـا منـه كلمـا قـام الأطبـاء بعلاجها، ففعلت وأصبحت طريحـة الفـراش إلى عـودة الملك الـذي أصبح مشـغوفاً بتمثالـه العـاري، فـأخبروه عنهـا حـين وصل وسأل عنها، وكلما قدموا لها دواءً شافياً أخـذت مـن شراب ابن الخـراز مـا يكفيهـا لتبقـي حالتهـا، إلى أن طلب الملـك كـبير الموابـذة لـيرى حالتهـا، وقبـل ذهابـه أخـبره ابـن الخراز أنه قادر على علاج أمراض الصـفرة، ولكـن كـبير الموابـذة لم يسـمح لـه بمرافقتـه، لأنـه مـؤمن بـأن بعـض الأمراض التي لا يعالجهـا الطب والأعشـاب، تعالجهـا النـار المقدسة، وبعد عدة زيارات فشل فيها عرض كبير الموابذة على ابن الخراز مرافقته، لعله يجد لها شفاءً لأن الملك مهتم بأمرهـا كـثيراً، فأرسـل ابـن الخـراز رنـد لتسـبقه وتخـبر الرقطاء بقدومه، وأمرها بأن تكون هادئة حتى لا يفتضح

أمرهمـا ، وأن لا تقـوم بـأي حركـة تشـير إلى معرفتـه لـه. فـذهب ابـن الخـراز مرتجفـاً مـن الارتبـاك والخـوف بـأن لا يفتضـح أمـره، وحـين رأتـه الرقطـاء قامـت مـن فراشـها ولكنها تداركت لهفتها بسرعة، قبل أن ينكشف أمرها لكبير الموابذة، فأمسكت بثياب كبير الموابذة وهي تعني ابن الخراز الواقف بالقرب منه، فقالت:

ليس لي من رغبةٍ إلا معك

لن أعيش العمر إلا أن نكون

مثلما كنا حديثاً بالعيون

يدك الآن بقربي ويدي

سنتان الآن مرًّا كجحيم

سنتان الآن مرًّا بعذابٍ وجنون

أفلت كبير الموابذة يديها برفق، فلم يفهم شيئاً مما قالته، وابـن الخـراز يقـف مشـتعلاً بمكانـه، ولكنهـا الحكمـة والصبر هما ما أمليا عليه السكوت، في هذا المقام.

فـاقترب منهـا ابـن الخـراز وسـقاها بيديـه شـراب العنـب الخـالص، وأوصـاها همسـاً بـأن لا تشـرب دواء الصـفرة،

وقال لكبير الموابذة يا سيدي لو استأذنت لنا الملك بإحضارها إلى المعبد فإنني أضمن له ولك شفاءها بأيام معدودة.

فأجابه: لنر نتيجة شرابك على هذه المسكينة أولاً يا خسرو، لا بد أن يرى الملك ما يقنعه بطلبنا.

كان كبير الموابذة يعرف اعتداد الملك بنسائه اللواتي يزدن عن الأربعين جارية وأنه يفضل موت أي منهن على أن تغادر القصر، فطلب منه يومين لعلاجها في المعبد متعللاً بطهارة المعبد لطرد الأرواح الشريرة عنها، وبعد أن تحسنت حالتها كثيراً، حيث توقفت عن شراب الصفرة الذي كانت تتناوله، وأمام إلحاحه وثقته الواضحة بقدرته على علاجها والعلامات الأولى المبشرة، لم يجد مفراً من لقاء الملك والطلب منه أخذها إلى المعبد لعدة أيام، وقد تشجع الملك بعد أن شاهد تحسنها قليلاً، فوافق الملك مكرهاً لشغفه بالرقطاء، بعد أن أمر ببناء غرفة خاصة بها تليق بإحدى نساء الملك في المعبد على أن لا يدخل المعبد أحد من عامة الناس طوال فترة علاجها، وأن تكون هناك حاشية من نساء الملك معها وحرس من العسكر عليهن، وطلب من

كبير الموابذة أن تقوم الرقطاء بعد أن تتعافى بالنحت على جدران المعبد صورة انتصاره على الضيزن بمدينة الحضر، وهدمه لحصن الجن الشهير، فما زالت بعد سنتين صورة الحمامة التي هدمت الحصن بذاكرته، وكان يريد أن يخلد أسطورة نصره.

فوافق كبير الموابذة، وقبل ابن الخراز على مضض كل الإجراءات التي أمر بها الملك، والتي لم تكن بحسبانه حين قام بحيلة مرض الصفرة، ولكن لابد لكل معضلة من حل عنده، وفي أقل من يومين تم بناء الغرفة الملكية داخل المعبد وقبل أن تنتقل الرقطاء، نادى عليها الملك، وقال لها يا صافيناز، لقد قال لي أحد العرافين وأنا أسأله عن ذريتي، بعد أن شاهدكن جميعاً، فقد أشار عليك وقال بأنكِ من ستلد من يشغل العرش من بعدي، وأنا أصدقه بذلك، فتعاوني مع الموابذة، واجتهدي لتعودي إلى القصر فربما تكونين أنت أم الملك القادم كما قال العراف، ولا تخبري أحداً بذلك حتى تأمني من حقد النساء عليك، فلا يعلمه إلا أنا وأنت والعراف.

انتقلت الرقطاء وحاشية الملك من النساء والعسكر إلى المعبد، وكان كبير الموابذة وخسرو بانتظارهم، وكان المعبد واسعاً من الداخل، فقد أخذ من تجويف الجبل ما جعل الجبل ناقصاً، وأخذ من المروج والأشجار من حوله ما جعله بستاناً، لا تعيبه إلا النار التي لا تعرف الانطفاء ولم يمر على بالها الإخماد، مما جعل إخمادها أمراً غير عادي، و أحاط بالنار تماثيل عديدة لكبار الموابذة الراحلين والملوك الراحلين وصور محفورة بالجدران تصور الانتصارات التي خاضها الملوك، فأشار كبير الموابذة إلى المكان الذي ستقوم به الرقطاء بنحت نصر الملك على حصن الحضر، وكلف ابن الخراز الذي أصبح موبذاً في المعبد بمتابعة هذا الأمر.

كان كبير الموابذة قد جاوز الثمانين من عمره وكان يجلس كل يوم أمام أحد المثالين ليقوم بعمل تمثال له، وأصبح الموابذة بلا عمل بعد أن منع الناس من دخول المعبد، سوى الانتظار على باب غرفة الرقطاء متضرعين إلى النار لطلب شفائها، وكان ابن الخراز الذي تجاوز الثلاثين من عمره يبدو كبيراً بلحيته التي تنام على صدره

وشعره الذي يرتاح على ظهره، وقد أبيض أكثره من مرارة ما لاقاه في السجن والحياة، وقد كانت الرقطاء تبدو أكبر من عمرها وقد أخذ منها المرض ما أبقاه لها الحزن على فقد أهلها وصاحبتها النضيرة، التي لا تفارقها صرخاتها الأخيرة والخيول تشدها من شعرها وأرجلها، حتى مزقتها، وحبيبها الغائب الذي لم تسمع به إلا فجأة ومن دون توقع أو انتظار من رند.

دخل ابن الخراز عليها الغرفة فخرجت كل النساء من غرفتها بأمره وقبل أن يعطيها دواءً لزوال اصفرارها، انقضت عليه باكية على صدره تستحلفه ألا يتركها، قائلة له ببكاء حار: أنا يتيمة يا شهاب، لقد أصبحت يتيمة إلا منك، فكن أبي وحبيبي وأخي وصديقي، ولا تكن عدواً لي فلدي من الأعداء الكثير، وأنا كما تعلم مازلت أحبك وخلص.

احتضنها ولم يمنح لحديثها الباكي مساحة، كان يعلم بأنهما قد نالا كفايتهما من الحزن، فليس من المقبول أن يعيداه حديثاً وهما في اللقاء، فكما للحزن ساعاته التي

يتمدد بها كيفما يشاء، لا بد أن يكون للفرح إن جاء ألقه وبهجته، وأن لا يضيعاه ويتلفاه بذكرى الحزن.

احتضنها فطال عناقهما معاً، وليعيدا سيرة القبلة الأولى، استيقظ شوق سنين مرت على عناقها الأخير له، فطلبت منه أن يخلع نعليه، وخلعت نعليها ووقفت على قدميه حتى تكون أكثر طولاً، وحتى يصبح أقل طولاً، فالتحمت الشفاه على الشفاه، ليعيدا سيرة القبلة الأولى التي لم يكن يعرفها العرب والروم آنذاك، ولكي تعرفها بلاد الفرس الآن، فظلا متعانقين متجاذبين لا تفارق راحة قدميها قدميه ولا تفارق شفتيها شفتيه حتى اكتمل نصاب الرغبة بينهما، فاستلقيا على السرير وكانت ليلتهما الأولى وكانت بذرتها الأولى وكان شفاؤها دون دواء، وتحقق نذرها الذي أخبرته به في بيت والدها بأول اعتراف منها له، حين قالت له: إنني نذرت لك عذريتي.

شربت من دوائه القليل وشربت من شفتيه الكثير، ومن راحة جسده الأكثر، حتى بدأ النور يتسرب كاللص من الثقوب إلى الغرفة، وكانت رند هي أقرب الناس إلى باب الغرفة تمنع أي واحدة من الاقتراب إليهما، إلى أن خرج ابن

الخـراز صـباحاً ليحمـل لهـا الإفطـار، ودخلـت رنـد عنـدها مستبشرة ببياض وجهها الذي ملأ الغرفة، وابتسـامتها الـتي تمـنح الـدفء لنـار المعبـد، وإقبالها علـى الحيـاة الـذي طـرد كل أدبار للحياة في قلبها وروحها، قبل هـذه الليلـة، ليلتهـا الأولى معه في المعبد الكئيب.

قامـت الرقطـاء بوجـه متهلـل بكامـل نشـاطها صـباحاً، وكأنهـا قـد نامـت طـوال الليـل وهـي الـتي لم تغفـل عيناهـا للحظـة خشـية أن يغيـب عنهـا ابـن الخـراز، فرحـت النسـوة برؤيتهـا قائمـة وفـرح كـل الموابـذة في المعبـد، محتسـبين أن تزيـد حظـوتهم عنـد الملـك بشـفاء الرقطـاء، وأسـرع كـبير الموابـذة والموبـذ خسـرو، لإخبـار الملـك بـذلك ولكـن ابـن الخراز طلب منـه بضـرورة أن يبقيهـا عـدة أيـام حتـى يطمـئن لشفائها، ولتقوم بنحت اللوحة على جدران المعبد كما أمـر الملك، فأجزل الملك لكبير الموابذة بالمال والعطايا وللموبـذ خسرو، وهنـأه بتعيينه موبذا في المعبـد، و وافـق علـى بقائهـا عدة أيام عملاً بنصيحة الموبذ خسرو الذي تعهـد لـه بمتابعـة نحـت لوحـة انتصـاره علـى الضـيزن وهدمـه حصـن الجـن،

وتصادفت رغبة الملك ببقائها أطول فترة يمكنها بالمعبد مع رحلة صيد طويلة سيقوم بها.

وبعد خمسة أيام قضياها بين الغرفة والرسم، استدعى الملك كبير الموابذة وخسرو، وقرب مقعد ابن الخراز منه، وتحاور معه طويلاً فأعجبته سرعة البديهة عنده وسعة الاطلاع والذكاء، ومتعة أحاديثه عما شاهده في أسفاره من الغرائب والطرائف، وكان يعلم ما يحب الملوك سماعه، وكان ابن الخراز يرى بيديه دم النضيرة وكل من عرفهم من مدينة قلعة الحضر، وقد طلب ابن الخراز من الملك أن ترتاح الرقطاء لمدة شهر، وأن لا تجهد نفسها بأي عمل، فقرر الملك أن يؤجل فكرة تمثاله العاري شهراً، فغادر ابن الخراز مجلس الملك بخير ما يغادر الملوك عادةً المكرمون.

ـ حورية: من المؤكد أن يتهلل وجه الرقطاء وأن تفرح في صباح عرسها، إن كل امرأة تنتظر هذا اليوم بفارغ الصبر، وتشعر أن كل ما اهتمت به طوال حياتها من شعرها لبشرتها لزينتها لمثل هذا اليوم.

التفت الجميع إلى بعضهم ولم يعلق أحد فبادر مولانا: كل شيء وله أوانه يا حورية وأنت سيتهلل وجهك صباحاً، فلا تستعجلي، أكمل يا أبو شديد لا فض فوك، وماذا قدم الملك لكبير الموابذة؟

عبد الحميد المثقف: أي كبير موابذة يا مولانا، يبدو أنك غير متابع للأحداث، لقد أكرمه بالمال والعطايا.

لطفي السياسي ضاحكاً: كل انسان يرصد ما يعنيه، مولانا يفكر بالمال الذي يناله رجال الدين من الملك، هذا كل ما يعنيه.

مولانا: اعذرني يا لطفي يا صاحب الابتدائية، فكلام حورية عن الصباحية وتهلل الوجه شتت تركيزي.

أحست حورية بالامتعاض لعدم اكتراث أبو شديد لرأيها، فأكمل أبو شديد:

كان خبر رحلة الملك من أجمل الأخبار التي تلقاها ابن الخراز طوال إقامته بمدينة نود، بعد خبر معرفته بوجود الرقطاء بالقصر. فعاد بخبره السار للرقطاء التي لم تكن لتهتم لأي أمر، لقد اقتربت من الموت في القصر إلى أن رأته أمامها، فلا يعنيها أمر الموت إن ماتت، وقررت بقرارة

نفسها بأنها لن تعود إلى القصر مهما حدث، وإنها قررت الموت بالمعبد على العيش في القصر.

وصل ابن الخراز فأخبرها بأمر سفر الملك وبقائها في المعبد لحين عودته، على أن تقوم بنحت انتصار الملك على الضيزن وهدم الحصن.

ضحكت الرقطاء وقالت: يا حبيبي أنا أحبك وخلص، يبدو أنك جننت مثل الملك، هل تريدني أن أحفر بأصابعي صورة موت والدي والملك الضيزن، لن أمنحه متعة الفرح بنصره الخادع ما حييت، وهذا أبعد ما يكون عن مناله يا ابن الخراز، ولكنني أعدك بأن أصور الحرب كما رأيتها، وستراها ولكن بعد أن أنهي تمثال حبيبي الموبذ خسرو.

طلبت الرقطاء الطين لتصنع تمثالاً لابن الخراز فقد كان لصلعته البادية، وذقنه الطويل المرتخي على صدره وشعره الطويل جاذبية وهو يرتدي زي الموابذة الأبيض المائل إلى الزرقة، وقد غطى كتفيه وصدره وأطراف صدره من الأسفل بإطار بني مزخرف، و كان يحمل مفتاح بيت النار الكبير بيديه كلما غادر المعبد كبير الموابذة.

فأجلسته على كرسي كبير الموابذة سراً خلال نوم كبير الموابذة، فقد هرم ولم يستيقظ إلا قليلاً ليجلس على كرسيه الخاص، الذي لا تعادله إلا خصوصية كرسي الملك المسمى بالفيروزج، وشرعت بتجسيد صورته، ولم يكن ابن الخراز متحمساً لفكرة التمثال، والبقاء صامتاً، كان يريد أن تتدلل أذناه بصوت الرقطاء كل دقيقة، وحين حان وقت الغداء جاءت رند لزيارتها، فطلب ابن الخراز من الرقطاء أن تتغدى وترتاح قليلاً في غرفتها، وقد أضمر نية مرافقتها في القيلولة، وسرعان ما فهمت الرقطاء، فقالت: أمممممم.

فقال ابن الخراز: لا تفهميني خطأً.

قالت: بل فهمتك صح، ألا تعلم بأنني أحبك وخلص .

فمضت تمشي إلى غرفتها بدلع وهي تقول: أمممممم.

وابن الخراز يمشي خلفها ويقول: يبدو أنك فهمتني خطأً.

ودخل خلفها طالباً عدم إزعاجه حتى يتمكن من علاجها.

ـ حورية: هذا هو الزوج الذي يعرف ما تريده المرأة.

ـ مولانا: يا أخت حورية يكفي مقاطعة لأبو شديد كلنا نعرف ما تريده المرأة.

ـ حورية: أنا لا يهمني أن تعرفوا أنتم، ما يهمني أن يعرف ابن الخراز....

قاطعها لطفي: إن الأمور المكشوفة لا تحتاج إلى تطرف بالتعبير، فنحن نعرف أن الاعتدال هو أفضل الحلول.

مولانا: ألسنا أمة وسطاً؟

ـ المثقف وهو يرتشف من الكأس: لنسمع ماذا حدث في القيلولة يا إخوان، سكوت رجاءً.

ـ حورية: ألا تعرف ماذا سيحدث يا مثقف؟

ـ المثقف: نريد أن نعرف كيف يمتزجان معاً يا أم الحور، فتكون قيلولة جسديهما أكثر حرارة من قيلولة النهار والمعبد.

انتظرت حورية أي تعليق من أبو شديد ولكن عينيه لم تفارقا الكتاب وتذكرت أن أبو شديد لم يعد بعد الحادث كما كان، لقد أصبح بليداً خاملاً يميل إلى الدعة والاستكانة طوال فترة حوارهما فقالت له: أكمل يا أبو شديد فأنا أخشى أن تنام هنا.

أبو شديد: يقول كتاب "رحلة ابن الخراز" إن ابن الخراز والرقطاء دخلا الغرفة، فخلعت نعليها دون أن تتفوه بأي

كلمة كما يقول الكتاب، ووقفت على قدميه لتكون أكثر طولاً، ولكي يكون أقصر قليلاً، فالتف ذراعاه حول خصرها وتعلقت يداها على رقبته فلم ينتبها إلا والشفاه مطبقة على الشفاه، فدخلا في غيبوبة صغرى حتى قبيل الغروب، فخرجا منهكين كمن سافرا شهراً بلا راحة ولا نوم، ثم جلس ابن الخراز على الكرسي حاملاً مفتاح بيت النار بيده، وجلست الرقطاء قبالته تجسده بكل انفعالاته وتعبه وفرحه وقلقه.

ولكي يشغل الجميع ببعضهم، طلب من العسكر أن يكونوا بالقرب من الجواري، وكان يحث الموابذة بعدم الاقتراب من غرف الجواري، فهذا شأن العسكر، وكان حريصاً على أن يقيم العسكر علاقات مع الجواري، فهذا من شأنه أن يسهل أمور ابن الخراز في المعبد، ولا يشعر بأنه مراقب من أحد، فأصبح حال العسكر أكثر ليونة، بعد أن لانت قلوبهم وأحاديثهم من حديث الجواري لهم، وبقاؤهم خارج القصر ساهم بذلك فلا يوجد ما يخيفهم، وكان لجرأة الجواري الدور الأكبر في تهاون العسكر،

فكـن يـذهبن إلى السـوق برفقـة العسـكر وكـان هـذا حلمهن، وما أبسطه من حلم.

وبينمـا كـان يجلـس ابـن الخـراز في غرفـة الرسـم بجـوار غرفـة الرقطـاء، جـاء أحـد الموابـذة ليخبـره بـأن رجـلاً خـارج المعبد يريده، فقال له أدخله فقال إن الحرس يمنعون دخول أي رجـل مـن عامـة النـاس أن يـدخل المعبـد، هـذه تعليمـات الملك كما تعلم أيها الموبذ المبجل.

خـرج ابـن الخـراز ليجـد السـيد حبيبيـان بانتظـاره علـى بـاب المعبد فبادره:

ـ ماذا لديك أيها العجوز؟ منذ فترة لم تأت لزيارتي.

ـ أبعد الأخبار الطيبة التي سمعتها من السيد سهراب، تريد أن تفسد يومك برؤية رجل عجوز مثلي، ولكنني أصريت على زيارتك لأمر هام، ولدي خبر لا أعرف إن كان مفرحاً أم لا.

وهنا انتهى الفصل السادس

ـ الغني: أكيد أن زوجته زريجبور خانم حامل.

ـ السياسي: كيف تحمل وهي عجوز؟ أعتقد أن الخبر هو رغبته بمغادرة مدينة نود.

ـ مولانا: كل ما تقولانه جائز.

ـ المثقف: أنا رأيي من رأي حورية لا أحب أن أختلف معها، بل أتمنى أن أتوافق معها في كل شيء، ما رأي حورية؟

ـ حورية: وجد كنزاً.

ـ مولانا: يا الله كيف فاتني ذلك؟

ـ السياسي: هل تصدقين يا حورية أنني كنت أريد أن أقول ذلك؟

ـ حبيب الغني: إن حورية لديها استشراف ونظرة مستقبلية ثرية، وأنا أتوقع لها الغنى السريع إذا كان بهذه النظرة للحياة.

ـ حورية: ما رأيك يا أبو شديد؟

ـ أبو شديد: أنا الكتاب أمامي وأعرف ما قاله السيد حبيبيان فلو سكتم قليلاً لعرفتم، ولما احتجتم إلى كل هذه التخمينات.

ـ حورية: نريد أن نكسر الملل قليلاً يا أبو شديد ولا مانع أن نستمع إلى نظريات مسائية ورأيك فيما قال حبيب عن النظرة المستقبلية والثراء القادم.

ـ أبو شديد: إن جاء الثراء فأهلاً و إن لم يأت فنحن لسنا أقل من غيرنا يا حبيبتي.

ـ المثقف: ما يعجبني بأبو شديد أنه قانع وما يعجبني بحورية أنها واعية للموازنة بين القناعة والرضى، لأن القناعة تختلف عن الرضا.

ـ الغني: وما الاختلاف بينهما أيها المثقف؟

ـ المثقف: القناعة يمارسها في الغالب من لا يسعى لما هو أكثر منها، يمكننا أن نقول الكسول الخامل قنوع، أما الرضى فإن من يصل إليه يكون قد سعى لما هو أفضل مما عنده وعندما يفشل أو لا يجاريه النجاح يرضى بما وصل إليه، رغم رغبته السابقة بماهو أكثر.

ـ مولانا: أنا أفهم أن القناعة كنزٌ لا يفنى، ومن يقنعه القليل فلا يحزنه ضياع الكثير.

ـ الغني: أنا لم أفهم شيئاً وأعتقد أن حورية توافقني الرأي في ذلك.

ـ السياسي: لم لا تضمني معكما يا حبيب بعدم الفهم، أنا لا أحب أن أكون وحيداً إن التكتلات من سمات هذا العصر، فأنا كمن لم يزل بالمرحلة الابتدائية.

ـ المثقف: أعتقد أن حورية تفهمني وتعرف أنها لو بحثت عن الأفضل سوف تجده أمامها، وإن لم تجده فيمكنها أن تقتنع بما لديها، ولكن لابد لها في البدء أن تبحث وسأساعدها إن شاءت مني أي مساعدة، للتميز بين القناعة والرضا والطموح.

ـ مولانا: كلنا نساعدها إن شاءت، ما عليها إلا أن تقول ونحن نرشدها للأصلح لها إن شاء الله، ولسنا كأخينا لطفي الذي ما زال في المرحلة الابتدائية، وأعتقد بأننا سنتجاوزها.

ـ الغني: يا أبو شديد أخبرنا ما قاله حبيبيان لابن الخراز ودعنا من عقدة المثقفين بياعين الكلام عن القناعة والرضى.

ـ أبو شديد: أنا لا أعرف لماذا تحبون الاختلاف وتعلقون على كل صغيرة وتضيعون حرارة الرواية.

ـ حورية: صدقت يا أبو شديد مع أننا قد وصلنا إلى الساعة الرابعة صباحاً ولم تنته هذه الرواية اللعينة، فلا أريد أن أعرف ماذا قال حبيبيان لابن الخراز، اعذروني سأغادر للنوم لقد تعبت، وحلقت بابتسامة حول الجميع وبنظرة لا

توحي بالنعاس، وربما كانت أقرب إلى الرغبة في تمضية السهرة معهم أكثر من مغادرتها، ولكنها غادرت تمشي إلى الغرفة بدلع وتتمايل بجسدها للإثارة، وهي تقول لأبو شديد ـ أممممم، هل هكذا كانت تمشي الرقطاء يا أبو شديد.

ولكن أبو شديد لم يلتفت لها ولم يعلق على حركاتها فقال: تصبحين على خير. و قال الجميع تصبحين على خير.

لقد كانت حورية تتمنى بداخلها أن يطلب منها أبو شديد البقاء ولكنه لم يفعل، و كان حريصاً على إنهاء الرواية للمرة الثانية التي يقرؤها فيها، أملاً بإثارة إعجاب أصدقائه وحورية، ومغادرتها جعلته يخرجها من دائرة حرصه على إثارة إعجابها، وأحست عندها بما خسره أبو شديد من إحساس من أثر الحادث، فها هو يترك عروسته في ليلتها الأولى تنام لوحدها، ولم يشعر حيالها بأي مشاعر، وهو يقول لها تصبحين على خير بكل برودة، ولا مبالاة لها ولمشاعرها.

وبعد أن غادرت حورية قال الجميع: أكمل يا أبو شديد فقال:

الفصل السابع

بعد أن قال السيد حبيبيان لابن الخراز لدي خبر لا أعرف إن كان مفرحاً أم لا.

قال ابن الخراز:

ـ لايوجد خبر مفرح أو محزن لذاته، فالخبر المفرح يكون بظرف معين من حيث الزمان والمكان والوقت مفرحاً، وفي ظرف آخر لايكون كذلك بل قد يكون محزناً، وكذلك الخبر المحزن فهو محزن بظرف معين.

ـ أنا لا أفهم فلسفتك وقد أخبرتك مراراً أن تحدثني على قدر فهمي.

ـ قل ما لديك إذن

ـ هل تذكر الجارية العربية التي بعتها للتاجر العربي في أول يوم عمل لك، حين كنت تعمل عندي في مدينة فضيل الراهب؟

ـ نعم أذكرها الجارية مُرة .

ـ تذكرت فعلاً هذا هو اسمها القديم.

ـ ماذا بها؟ وما الذي جاء بها على بالك الآن .

ـ جاء أحد جنود العسكر إلى سوق الجواري اليوم يريد بيعها وقد أسماها جلنار، يقول بأنها عربية ولا تريد أن تبقى لديه وعذبته كثيراً، ويريد الخلاص منها بأي ثمن.

جحظت عينا ابن الخراز وقال صارخاً وأين هي الآن؟

ـ لقد أبقيتها عندي في السوق وأخبرت صاحبها، بأنني سوف أبحث لها عن أفضل سعر فوافق.

ـ خذني إليها بسرعة.

أخبر ابن الخراز الرقطاء بأنه ذاهب للسوق وسيأتي بمفاجأة سارة لها، انطلق ابن الخراز وحبيبيان إلى السوق وما إن شاهد العسكري السيد حبيبيان والموبذ خسرو حتى أصابه الارتباك بعض الشيء، فهو يعرف مكانة الموبذ خسرو عند الملك، ويعرف حظوته عنده، تقدم الموبذ خسرو من الجارية مُرة التي لم تعرفه بهيئته الجديدة، ولم تكن لتتوقع أن تراه في بلاد الفرس، تأكد منها وهي غير مبالية، فالتفت إلى العسكري وقال له من أين حصلت عليها؟ قال: هي إحدى غنائمي يا سيدي من مدينة الحضر. فقال نحن نريدها في المعبد لخدمة النار المقدسة فقد أمرنا الملك بإحضار بعض الجواري لخدمة النار المقدسة.

ـ خذها دون ثمن، فيكفيني شرف تنفيذ أوامر سيدي الملك، ولكنها عربية ولا تعبد النار مثلنا وليس لها دين يا سيدي.

مسح ابن الخراز على شعره وقال: هذا شأننا يا بني وستكافئك النار بأفضل منها.

انحنى العسكري تحية للموبذ خسرو مقبلاً يديه وغادر.

اقترب ابن الخراز من الجارية مُرة وقال لها بالعربية: هل وجدت الحياة الأفضل التي كنت تبحثين عنها عند الفرس؟

رفعت رأسها متعجبة من الحديث العربي معها، فهي لم تسمع أحداً يكلمها بالعربية منذ سنتين، فقالت بكل اعتداد وهي لم تزل تجهل شخصية الموبذ: أنا عربية ولو عشت بخيمة في بلاد العرب أعز لي من قصور فارس جميعها، وكل أشجار فارس لا تعدل عندي نخلة في أرض العرب، وكل بساتينها لا تساوي عندي كثبان الرمل التي لا تعجبكم في أرض العرب.

ضحك ابن الخراز وقال أنت حرة يا مُرة وإن جار عليك الزمن، وسيبقى دمك النقي مهما تكالبت عليك

الظروف، حدقت مرة في الرجل العربي الذي يرتدي ثياب الموابذة وسألته: هل أنت عربي؟

فقال السيد حبيبيان: هذا شهاب بن سهيل ابن الخراز مساعدي في مدينة فضيل الراهب، فابتسمت وقامت له تعانقه قائلة وهي تبكي من الفرح:

أعلمت ما حدث لمدينة الحضر؟ أعلمتَ ماذا فعلوا بالملك الضيزن وسيدي سلمة بن غيث وابنته الرقطاء حبيبتك وأختيها؟ أعلمتَ؟ فقاطع بكاءها وقال علمتُ يا مُرة كل شيء فهدئي من روعك.

توقف أبو شديد ليرتشف قليلاً من الماء، وقال هل أعجبتكم الرواية؟

فقال عبد الحميد: جداً يا أبو شديد لدرجة أننا غير قادرين على الذهاب إلى الحمام، خاصة أنه لا يوجد لديك إلا حمام واحد بالغرفة وحورية دخلت تنام.

فقال لهم أبو شديد: الحمام داخل الغرفة كل من يريد أن يستخدم الحمام فليدخل بحذر وهدوء ويخرج بهدوء حتى لا يوقظ حورية، فتصحو وتزعجنا بملاحظاتها.

فقام عبد الحميد وقال: أنا ذاهب إلى الحمام بهدوء حسب تعليماتك، فأكمل أنت الرواية ولا عليك سأعرف من السياق بقية الأحداث التي تفوتني.

فقال أبو شديد: لن ننتظر أحداً يذهب إلى الحمام، ولا تجعلوا من الحمام قصة تقطعون فيها سرد الرواية، من يريد الحمام ليذهب دون أن يستأذن ويوقفنا.

فقالوا: كما تشاء يا أبو شديد أكمل.

فقال أبو شديد: أين وصلنا أين وصلنا، نعم وصلنا هنا.

كانت دموع مُرة منهمرة من الفرح ومن ذكريات الموت التي أعادتها لها رؤية ابن الخراز أمامها.

فسألها ابن الخراز: هل تعرفين أحدًا من نساء العرب؟

فقالت: أعرف الكثير ولكني لا أدري أين يقيمون، فطلب ابن الخراز من السيد حبيبيان أن يبحث عن النساء العربيات الجواري اللواتي تم سبيهن من مدينة الحضر، وأوكل إليه مهمة البحث عنهن من أجل شرائهن، فلم يفكر فيهن قبل رؤيته لمُرة، لقد كان جل اهتمامه بالرقطاء آنذاك.

أخذها ابن الخراز معه إلى المعبد وأخبرها بأن اسمه هنا هو الموبذ خسرو، وأنه يحمل لها مفاجأة سارة، وترك السيد حبيبيان الذي بدا عليه الحماس لإطلاق سراح الجواري العربيات بعدما سمع كلام مُرة وحديثها عن أرض العرب، فربما أيقظت فيه عروبته الضائعة وقرر أن يكون كما كان في الأصل.

دخل ابن الخراز على الرقطاء بالمعبد وأبقى مُرة في البهو الكبير، فوجد الرقطاء منهمكة بالحفر بجدران المعبد، لنحت لوحة انتصار الملك كما طلب، فقالت له أين مفاجأتك التي حدثتني عنها، فأنشدها:

أيتها الأنثى التي تملأ صدري

بالمسرات وألوان الطرافه

وأنا أملأ صدر الأرض

شعراً وخرافه

أيتها الظبيةُ والقطةُ

والمحنةُ والرقةُ

يا مشي الزرافه

أيتها الرقطاءُ يا زينة شعري

لن يمل الحرف يوماً من طوافه

فقالت الرقطاء: لا أمل منك ولا أكتفي من شعرك وتجذبني أحاديثك إلى حد الجنون، أنت إسراري وإعلاني وإيماني وحبي الأول والرجل الأول والأخير.

احتضنته بقوة وقالت: ادخل قلبي ثانية، أو ادخل لترى مكانك بقلبي.

فقال ابن الخراز: فلتدخلي الغرفة الآن لدي شيء لك.

فابتسمت وقالت: الآن وكل آن يا حبيبي، وهي تمشي بدلع وتتمايل بجسدها وتقول وهي تبتسم: أمممم.

فقال ضاحكاً: هذه المرة لم تفلح معك، أريدك أن تلتقي بامرأة بالغرفة لوحدكما وحتى لا تثيرا أي شكوك حولك بالمعبد.

فقالت الرقطاء لقد شغلت بالي من تكون؟

فقال: انتظري بالداخل وستأتيك.

دخل ابن الخراز على الرقطاء ومعه الجارية مُرة، وما إن شاهدتا بعضهما، حتى أجهشتا بالبكاء، واختلطت الدموع بالعتاب وبالذكريات وبالخوف وبالفرح، ولما

حاولتا تذكر أحداث الحصن بمدينة الحضر والنضيرة، قال لهما ابن الخراز:

هذه لحظة فرح فلا تفسداها بتذكر الموتى وما حدث، فتُفسدا فرحتكما، حاولا أن تعيشا الفرح معاً طالما أنكما عشتما الحزن شهوراً وسنين، وعلا بكاؤهما وتعانقتا عناقاً حاراً، وكان ابن الخراز واقفاً يرصد الفرحة بينهما، وما هي إلا لحظات حتى أتى أحد الموابذة باكياً.

ـ سيدي الموبذ خسرو أدركنا، إن كبير الموابذة قد مات قد مات قد مات، لقد قال إنه يريد النوم قليلاً ولكنه لم يستيقظ، حاولت معه مراراً ولكنه لم يستيقظ، واستمر بالبكاء الحار، وجحظت عينا ابن الخراز فمن صدمة لقاء الرقطاء إلى صدمة موت كبير الموابذة الذي كان يحبه وكان سنده عند الملك فماذا سيفعل؟ لم يكن هذا الحدث متوقعاً ولكنه لم يكن مستبعداً لرجل في الثمانين من عمره.

دخل ابن الخراز على كبير الموابذة المسجى على فراشه دون حراك، وحوله جميع الموابذة في بكاء هستيري،

انحنــى ابــن الخــراز علــى رأس كــبير الموابــذة، وبكــاه بحرقة، حيث كان هو الراعي له، والباب الذي يستطيع من خلاله أن يفعل ما يشاء، وأن يطلب ما يشاء من الملك من خلاله، وبعد أن اكتفى من البكاء، طلب ابن الخراز من الموابذة كتمان الأمر إلى أن يحدث الملك بذلك بعد عودته، وطلب منهم الصبر وعدم إظهار الخوف أمام العسكر، والجواري المرافقات للرقطاء بالمعبد، فالملك لا بد أنه عائد قريباً حيث تجاوز غيابه أكثر من شهر.

وقام يتمشى بالمعبد مسترجعاً ماضيه وعلاقته مع كبير الموابذة وهو ينشد:

أنت الكبير الذي بالحب يحرسني

هل بعدك النار إن صدقتُ تحفظني

ها معبدُ النار كالأغصانِ منكسراً

في هجمة الريح أو كالبُرِ ينثرني

غادرت دون وداع دون توصية

صمتاً كأنك قلت الصمت يسترني

في هذه الأثناء، خرج عبد الحميد بهدوء من غرفة حورية وجلس دون أن يقول كلمة، وقبل أن يكمل أبو شديد أشار حبيب الغني إلى أبو شديد بأنه يريد الذهاب إلى الحمام فأشار له أبو شديد بالموافقة بيده فأكمل أبو شديد:

كما قلنا طلب ابن الخراز أن يتم كتمان الأمر إلى أن يحدث الملك بذلك، وطلب منهم الصبر وعدم اظهار الخوف أمام العسكر، والجواري المرافقات للرقطاء بالمعبد فعاد إلى الرقطاء ومُرة وقال لهما:

إن كبير الموابذة قد مات، فاكتما الأمر إلى أن نجد مخرجاً من هذا الشأن، وإن كنتما تعرفان بمكان بقية نساء الحضر فأخبراني، قبل أن ألتقي بالملك بعد عودته خلال أيام بعد عودته من رحلة الصيد.

فقالت مُرة: رأيت الكثير ممن لديهم فتيات عربيات من مدينة الحضر، ولكني لا أعرف أين يمكن أن نجدهن، فكل لقاءاتي كانت صدفة معهن.

أرسل ابن الخراز رسولاً من المعبد إلى السيد حبيبيان ليجتمع معه في منزل السيد سهراب على الغداء وطلب منه

أن يحضـر زوجتـه زريجيبـور خـانم، وأخـذ معـه مُـرة وتـرك الرقطاء التي مازالت تحظى بحماية من العسـكر في المعبـد خارج غرفتها.

وعلى الغداء تعارفت رند وزريجبور خانم والسيد سهراب وحبيبيان ومُرة معهم، فقال لهم ابن الخراز إنني أبحث عن مسـاعدتكم بشـراء الجـواري العربيـات وإعـادتهن إلى أرضهن وأهلهن، وأريد منك يا سيد سهراب أن تكون وفياً معي كما كنت وفياً معك.

فقال السيد سهراب: أنا سوف أدفع إكراماً لك ما تريد من المال .

وقال حبيبيان: أنا سوف أعرف من خلال السوق والتجار أين هن.

فقالت زريجبور: لقد اعتنقت المجوسية يا خسرو وأصبحت موبذاً في المعبد ومازلت تحن إلى جذورك الأولى، وجعلت زوجي يحن إلى جذوره أيضاً.

فصـرخ فيهـا حبيبيـان: هـذا لـيس لـه علاقـة بالأصـول والجذور، هن أحرار وأصبحن سبايا فماذا يضرك لو عدن إلى ديارهن أحراراً.

فعاد الخوف لابن الخراز من زريجبور خانم حين تذكر السجن، رغم علمه فيما بعد بأنها بريئة من ظنونه بها وأنها لم تقم بالوشاية عليه، إلا أنه آثر أن يستعطفها وطلب من السيد حبيبيان أن يقدر سؤالها حتى وإن لم يتفق معها، فأخبر السيد سهراب لزريجبور بفضل ابن الخراز عليه وأشاد حبيبيان بفضله عليه وأشارت مُرة كذلك، فقالت رند بلهجة حازمة، نحن مع خسرو فيما يريد، أنت مع من؟ فقالت زريجبور أنا مع زوجي حبيبيان وابني خسرو، أنا لا أنكر عليه ولكنني معجبة بإصراره وصبره.

وأشار ابن الخراز بفضل السيدة زريجبور خانم عليه، وهنا انفرجت أساريرها وقامت تقبله وتقول له أنت كنت نعم الولد لي والذي عوضتني النار بك عن موته.

دخل حبيب الغني متسللاً بهدوء كاللص إلى الصالة حيث يجلس الجميع، يجلس فيها الجميع دون أن يصدر صوتاً، وما إن جلس حتى أشار لطفي لأبو شديد بيده يريد الذهاب إلى الحمام، فأومأ له برأسه بالموافقة على دخول الحمام بغرفة حورية وأكمل:

فقال ابن الخراز: الجواري أخذهن العسكر وغالباً ما يبيعونهن طمعاً بالمال إلى تاجر أو أمير.

وقالت مرة: بعد أن ينالوا منهن مايشاؤون من متعة وإذلال، فتطيب له معاشرتها ولكن يثقل عليه حملها من كسوة وإطعام فيبيعها، بعد أن يمل منها وتمرض منه.

صمت الجميع لفترة، مراعاة لدمعة بدأ بريقها بعيون مُرة، وحتى لا يستثيرها أحد فتنزل، قامت رند واحتضنتها وقالت لها: ستعودين ومعك أهلك وأقربائك من نساء العرب إلى أرضكم، وقال السيد سهراب موجهاً حديثه لابن الخراز أرأيت لماذا أحببت هذه المرأة، فلو كانت مازالت عند ذلك الحارس البخيل لما ظهر معدنها النقي هذا.

فقال ابن الخراز: إن رند إنسانة تستحق كل ما لقيت عندك من اهتمام ولطف، وكما أشرت إن معدنها هو الذهب.

لقد فكر ابن الخراز بإخبارهم عن موت كبير الموابذة، ولكنه خشي من السيدة زريجبور أن تفضح الأمر في كل المدينة قبل عودة الملك، فهي مؤمنة بالنار والمجوسية وبكل المعتقدات المتعلقة بها، وهذا ما جعله يبقي أمر موت كبير

الموابذة سراً عن أصدقائه، ولم تكن مُرة ممن تعني لها كل هذه الأمور بفارس ولا يعني لها أمر موت أو حياة فارس بأكملها، كان أملها العودة إلى مدينة الحضر تحديداً، فلم تجد كرامتها في مدينة فضيل الراهب التي مازالت تدين بالولاء لشاهبور الفارسي.

عاد ابن الخراز ومُرة، وترك أصدقاءه يقومون بما طلبه منهم، حيث سيكون لرند ومُرة وزريجبور خانم دور مهم، كما هو لحبيبيان وسهراب، ليجد المعبد هادئاً على غير عادته، و وجد الرقطاء في حالة إنهاك واستفراغ، فقالت له: ما إن خرجت حتى عم البكاء على كبير الموابذة وخشيت أن يفتضح الأمر فصرخت بالحرس أن يمنعوا البكاء من الجميع وأن لايدخل أحد المعبد في غيابك، فسألها وماهو سبب الاستفراغ والإعياء؟

فقالت الرقطاء: لا أعلم تحديداً، فمنذ أن خرجتما أحسست بدوار برأسي وألم في بطني وبدأ الاستفراغ.

فقالت مرة: يبدو بأنك حامل يامولاتي، هذه علامات الحمل، فساد الوجوم على وجهي ابن الخراز والرقطاء.

فقال ابن الخراز: ألا تاتي المصائب متفرقة؟ ما حكاية هذا اليوم كله مصائب؟!

فقالت الرقطاء: وهل حملي مصيبة، ظننت أن هذا الأمر سيفرحك أكثر مني؟

فقال ابن الخراز: أيتها الرقطاء يا أغلى نساء الأرض في قلبي، سيفتضح أمرنا قبل أن نجد المخرج من هنا، إن كبير الموابذة قال لي، إن شاهبور لديه أربعون زوجة وجارية وليس لديه أي ولد، ولم تحمل منه أي امرأة منه.

فصرخ مولانا: مهلاً يا أبو شديد، ليس لديه أي ولد أو بنت؟ اسمع يا حبيب، اسمع يا عبد الحميد، والتفت تجاه الغرفة ونادى اسمع يا لطفي يا صاحب الابتدائية، أين أنت؟

فقال أبو شديد: هذا ما يقوله الكتاب فدعنا نكمل يا مولانا.

خرج لطفي من الغرفة مسرعاً، فوجدهم على جلستهم وقال ماذا حدث؟

فقال مولانا: شاهبور لديه أربعون زوجة وجارية ولم تحمل منه أي امرأة.

ـ لطفي: وما شأني؟ فليحترق يا أخي أرعبتني بصراخك يا رجل، فجلس ليشهد نقاشاً لا يعرف سببه، حيث كان في الحمام وقتها، فقال: ماذا حدث بالظبط؟ فقال مولانا: استمع لأبو شديد وأنا سأدخل الحمام بعد إذن أبو شديد، فذهب إلى الغرفة وأغلق الباب بهدوء حتى لا يصل الإزعاج لحورية النائمة، حسب تعليمات أبو شديد.

فقال أبو شديد: اسمع يا لطفي وليسمع الجميع، ودعونا من النقاشات لأحداث لسنا طرفاً فيها.

فقال عبد الحميد صدقت يا أبو شديد، أكمل بأبي أنت وأمي.

فأكمل أبو شديد القراءة:

فقال ابن الخراز: أيتها الرقطاء يا أغلى نساء الأرض في قلبي، سيفتضح أمرنا إن شاهبور لديه أربعون زوجة وجارية وليس لديه أي ولد، ولم تحمل أي امرأة منه.

فبهتت مرة وقالت الرقطاء: نعم يا مُرة وهو كان يقول لي لن تأتي بولدي إلا تلك الجارية العربية وكان يعنيني، وقد كان متأملاً أن ينال مني، ولكنني حرصت على أن أوفي نذري و وفيته، وابتسمت خجلاً فابتسم ابن الخراز وقال:

لقد أحسنت الوفاء أيتها الرقطاء الرائعة، فدعونا نفكر بالأمر فهذا الحمل قد غير تفكيري في هذه اللحظة، لقد أعاد الحمل والوحم الرقطاء إلى حالة المرض التي من أجلها دخلت المعبد المقدس، وهذا أمر طيب إلى أن يجد ابن الخراز حلاً خلال الأيام القادمة.

كان السيد حبيبيان والسيد سهراب يعملان بجد مع زوجتيهما، وقد عثرا على خمس جواري عربيات وقاما بشرائهن وإسكانهن في منزل السيد سهراب الأول حيث كان الحارس البخيل زوج رند، وكانا يعدان العدة لمفاجأة ابن الخراز و زرع ابتسامة على وجهه المتجهم من هول ما مرَّ عليه في رحلته الطويلة ومعاناته الأطول.

أعلن عن عودة شاهبور إلى نود، وكانت المدينة تعلم بقدومه و برحيله من خلال المراسيم التي تتم والأبواق والأعلام والزينة التي تملأ الطرقات، وحتى لا يسبق ابن الخراز أحد من الحرس أو جواسيس الملك، فقد كان مبادراً برفقة أعيان وجند وتجار المدينه وأمرائها، باستقباله عند مدخل المدينة، وما إن لمح الملك الموبذ خسرو واقفاً، وما من عادة الموابذة أن تقف كبقية الجموع، حتى

توقف و دنا منه وقال: أيها الموبذ المقدس خسرو، أنا من يأتي إلى المعبد ليأخذ بركة النار، ولا أريد لموبذ مقدس أن يكون ضمن عامة الناس فقال له: يا مولاي إن حدث قدومك كبير وهذا شرف لي ولمن بالمعبد، ولكن أمراً قد حدث فلم أشأ أن يسبقني أحد إليه، فقال له: هل حدث للجارية شيء؟ فقال: هناك ما هو أهم منها وما يعني الملك أكثر من سواه، وما خدام المعبد إلا خدام الملك أولاً، فالنار وقدسيتها إنما هي لخدمة وسلامة الملك، فقال له شاهبور: اركب معي بالموكب ولنتحدث بالقصر لأنني أصبت بحمى بهذه الرحلة، ولم أشف منها إلى الآن، ذهب ابن الخراز برفقة الملك وكانت الناس تراه على يمين الملك بالموكب مما أعلى شأنه عند عامة الناس وهذا ما كان يريده ابن الخراز.

وما إن وصلوا إلى القصر حتى طلب الملك شاهبور الانفراد بالموبذ خسرو، فجلس على تخته الفيروزج في إيوانه، فقال له:

يا مولاي دون أن أطيل على وقتك الثمين، ومعرفتي بتعب السفر عليك، لقد مات كبير الموابذة قبل خمسة أيام،

وقـد كتمـت الأمـر حتـى تعلـم أنـت أولاً ، وكـي لا تعـم الفوضى بين الناس.

فقـال لـه شـاهبور: حسـناً فعلـت يـا خسـرو ، ومـا هـي حالـة الجارية العربية؟

اكتشـف ابـن الخـراز أن شـاهبور لا يهمـه شـأن المعبـد وإن حـاول أن يـبين غـير ذلـك ، فقـرر كعادتـه أن يرتجـل رأيـاً فيها ، دون اسـتعداد منـه ، فلـم يكـن يتوقـع أن يسـأله الملك عن الجارية الرقطاء ، في الوقت الذي ذهـب فيـه ليخبره عـن مـوت كـبير الموابـذة ، فقـال لـه ابـن الخـراز إنهـا ملعونـة يـا مولاي فمـا إن تصـح حتـى يعـاود لهـا المـرض ، يبـدو أن الجـن قد تمكنو منها ، فهم يسـكنونها ، ويؤذون كل من يقـترب منهـا ، حتـى كـبير الموابـذة لم يسـلم منهـا ، فمـاذا تـأمر يـا مولاي؟

فقال شاهبور: اتركها بالمعبد فقـد أصـابتني حمـى بالسـفر ومازالت تعاودني ، ولا أريد أن تزداد حالتي سوء.

فقـال لـه ابـن الخـراز: أنـا أتحـدث يـا مـولاي عـن كـبير الموابذة.

فقال شاهبور: أنا ملك منذ ثمانية عشر سنة، وأعرف أن كبير الموابذة كان هو كبير الموابذة، وحين كان أبي ملكاً كان هو كبير الموابذة، فلا أعرف غيره ولا أعرف ماذا أفعل بهذا الأمر، فاقترح ما شئت يا خسرو، فقال ابن الخراز: الأمر للملك ولا أحد سواه أن يعين من يكون كبير الموابذة فقال الملك: ومن ترى؟ من هو الأصلح؟

ـ ابن الخراز: الأصلح هو دائماً من يكون أقرب إلى الملك، من يستأنس برأيه ومن يثق فيه.

ـ شاهبور: ألا يجب أن يكون الأعلم؟

ـ ابن الخراز: هذا ما يحدث بالحرف الصغيرة يا مولاي، أما ما يخص الملك فعادة ما يقدم صاحب الثقة على صاحب العلم. هكذا هي أمور الحكم يا مولاي.

شاهبور: وكيف ذلك؟

ابن الخراز: يكلف الملك عادة أمهر الحدادين لصناعة سيف الملك وسيوف الجند، ولكنه يكلف أكثرهم ثقة وحرصاً على سلامة الملك بحراسة الملك، ويعين الملك أمهر الطباخين ليقوم بإعداد غداء وعشاء الملك، ولكنه يعين أكثرهم ثقة لتقديم الأكل إلى الملك.

ـ شاهبور: و من ترى الأقرب وصاحب الثقة من بينهم أنا لا أعرف منهم أحداً؟

ـ ابن الخراز: جميع الموابذة جديرون بالمنصب ولك الرأي فيهم.

ـ شاهبور: أين هم الآن؟

فوجد ابن الخراز الفرصة لضربهم والتقليل من شأنهم، فقال: إنهم ما زالوا يبكون بالمعبد، غير قادرين على تحمل موت كبير الموابذة.

فقال شاهبور غاضباً: منذ خمسة أيام ويبكون إلى الآن؟ إن هؤلاء ضعاف قلوب ليسوا جديرين بهذه المسؤولية، فنادى الحاجب وكاتبه، وطلب منه أن يصدر أمراً بتعين الموبذ خسرو كبيراً للموابذة وخادماً للنار المقدسة.

خرج مولانا من غرفة النوم بهدوء، وأغلق الباب من خلفه، وما إن وصل لهم حتى قال: أربعين زوجة وجارية ولم تحمل منه أي امرأة؟ لابد أن يكون عقيماً.

فأشار عليه لطفي بالسكوت، وطلب منه أن يستعد للصلاة، فقد أذن الفجر قبل قليل.

فقال مولانا: هذا ليس شأنك سأصلي في بيتي.

وقبل أن يستمرا في النقاش والجدل أكمل أبو شديد:

قال ابن الخراز: ستراني بخدمتك وخدمة المعبد يا مولاي على أحسن ما تكون عليه الخدمة، وعلى أحسن ما يكون عليه الولاء للملك.

استأذن ابن الخراز وسمع شاهبور ينادي على الطبيب كي يراه، فقد بدا الإعياء عليه والتعب.

عاد ابن الخراز إلى المعبد مشغول البال يفكر بطريقة للتخلص من إلحاح شاهبور على الرقطاء ، وفكر بإعلان موتها، وفكر بهروبها، وهو في شروده وتفكيره وجد السيد حبيبيان بانتظاره عند باب المعبد، ومعه زوجته والسيدة رند وطلبوا منه مرافقتهم وأصروا على عدم الحديث، فأخذ معه مُرة وذهبوا إلى منزل السيد سهراب، ليجد خمسة نساء عرف واحدة منهم، إنها أخت الرقطاء الكبرى، وما إن شاهدتهم مُرة حتى انهارت بالبكاء واحتضنتهم جميعاً، فبددت فرحته بالعثور على شقيقة الرقطاء حالة الوجوم المسيطرة عليه منذ خرج من قصر الملك، فاقترب من شقيقة الرقطاء الكبرى، وقال لها هل عرفتني؟ فقالت: لا، فطلب منهم أن لا يخبروها، وقال لها:

تعـالي معـي أعرفـك علـى زوجـتي ربمـا تعرفينهـا ، وبقـي الفتيـات الأربعـة بمنـزل سـهراب ، وذهـب ابـن الخـراز ومُـرة وشقيقة الرقطاء إلى المعبد ، ومـا إن شـاهدت الرقطـاء حتـى إنهارت بالبكاء ، فقال لها : هذه زوجتي.

فقالـت شـقيقة الرقطـاء: إذن لا بـد أن تكـون أنـت ابـن الخراز ، لأن الرقطاء كانت تقول لـن تتـزوج إلا ابـن الخـراز وإلا فالموت هو زوجي البديل.

فقال لها لقد صدقت بوعدها ، وصدقت بوعدي لها.

فقالـت لـه: وكيـف تغـيرت حالـك هكـذا ، لقـد تغـيرت كثيراً ومن الأفضل أنك لم تتزوجني حتى لا أصبح زوجة موبذ في معبد النار ، فضحك الجميع واختلطت دموع الفـرح بالضحك.

فقال ابن الخراز: لأصبحت زوجة كبير الموابذة.

سـاد صـمت وذهـول علـى الجميـع ، فهـذا أرفـع منصـب بعـد الملك و ولي الملك مـن بعده ، فنظـر ابـن الخـراز إلى الرقطـاء الـتي امـتلأت عينيهـا فرحـا و فخـرا بهـذا المتشـرد العربـي ، الذي استطاع أن يصل إلى مـا يريـد ، وفي غير أرضـه ولـيس

بين أهله، رجلٌ تخير من صعاب الأرض ما يدنيه من هدب السماء، رجلٌ تجمل بالوفاء وبالذكاء وبالدهاء.

وصل في هذه الأثناء قرار الملك بتعيين ابن الخراز كبير الموابذة وذهب ابن الخراز إلى الموابذة ليتلقى منهم الطاعة والتهنئة والمباركة، ويطلب منهم بحضور رسول الملك التقرب من النار وطلب الشفاء للملك، وأعلن أنه سيكون بخدمة النار إلى شفاء الملك، وكان ابن الخراز يعلم بأن هذا الأمر سيصل إلى الملك وسيكون محل تقديره.

خرجت حورية من الغرفة بملابس النوم متدثرة بالروب الأبيض فسكت أبو شديد، وقالت: ألم تنتهي الرواية بعد؟ لقد أصبحت الساعة السادسة صباحاً.

فقال أبو شديد: بقي القليل، ظننتك نائمة.

فقالت حورية لم أستطع النوم .

فقال أبو شديد: ربما أزعجك دخول الشباب إلى غرفة النوم للحمام.

فقالت حورية: لا لم يزعجني أحد لقد كانو لطفاء هادئين ولكنك أنت الوحيد يا أبو شديد الذي لم يدخل، فبدت الريبة على الجميع وهم ينظرون إلى بعضهم فأكملت أنت

الوحيد الذي لم يدخل الحمام، ألا تشعر بحاجتك إلى الحمام، فقال نعم الآن أشعر بحاجتي سأذهب إلى الحمام، واستأذن الجميع، وما هي إلا دقائق قليلة حتى عاد أبو شديد وقال:

أرأيتم أنا أسرع منكم جميعاً، فقال لطفي هذا رقم قياسي، أنا خرجت على صوت مولانا مرعوباً، حين صرخ اسمع يا لطفي الملك ليس لديه أولاد، وما شأني أنا به.

فقال أبو شديد: لنكمل الرواية، فلم يتبق إلا القليل فقال: وصلنا إلى أين؟ نعم هنا، وكان ابن الخراز يعلم بأن هذا الأمر سيصل إلى الملك وسيكون محل تقديره، وإنه قد اختار الرجل الأكثر ثقة له بين الموابذة والأكثر حزماً وقيادة بينهم.

لقد أصبحت الآن كلمة ابن الخراز نافذة على كل من في المعبد بمن فيهم الحرس، وبدأ باستمالة بعض الحرس بالمال، والبعض بالتغاضي عن علاقاتهم مع الجواري، والبعض بمباركة النار لهم والبعض بالترهيب من العقاب، ومع مرور الأسبوع الأول لعودة الملك بدت المدينة أكثر حديثاً عن مرض الملك، وبدأ منزل سهراب واحة عربية في

بلاد الفرس، يدور فيها الحديث العربي والأكل العربي والقصص العربية والتاريخ والأنساب.

إن مرض الملك دون وجود ولي للعهد من بعد، ودون وجود أمراء يطمعون بالملك جعل كبير الموابذة المبارك من النار المقدسة الرجل الأقوى بعد الملك، فلازم الملك في مرضه نهاراً، ولازم الرقطاء ليلاً، وما إن يعود خلال ساعات معدودة للمعبد، حتى تجلسه الرقطاء على كرسي كبير الموابذة جهراً، بعد أن كان جلوسه سراً، لتنحت له تمثالاً، وقد قطعت شوطاً كبيرًا في تمثاله، الذي لم يكن يعني لابن الخراز أي أهمية سوى أنه من صنع الرقطاء، فقد كان يفرحه أن يرى الفرحة بعينيها لأمر تحبه، فقد كفاها ما لاقت من هول خلا سنتين من العذاب، والذكريات الأليمة، وما إن تشعر برغبتها به، حتى قالت: أممممممم وعندها يفهم ابن الخراز ما تعنيه حتى لو كانوا بين الأصدقاء، لقد كانت خصوصيتهم للعلاقة الحميمة.

دخل الملك في مرحلة متأخرة من المرض الذي لم يعد يميز فيه بين الأفراد الذين من حوله، إلا القليل منهم، فكان

يستيقظ لفترة ويكون فيها واعياً لما حوله، ولكنه غير قادر على الحركة، وسرعان ما يغيب عن الوعي أو يتحدث بما لا يفهمه أحد ممن حولة، فعين ابن الخراز بنفسه الحرس على غرفة الملك، والممرات لغرفته، وكانوا من حرس المعبد، ممن يدينون بالولاء له قبل قائد الجند الذي لم يكن سوى رجل يتقن تنفيذ التعليمات، ولم يشأ ابن الخراز أن يقيم عداء مع أحد، ولم يشأ أي عاقل أن يقيم عداء مع كبير الموابذة المقدس من النار المقدسة.

وما إن يصحو الملك حتى يقوم الحرس باستدعاء كبير الموابذة ليجالس الملك، وفي إحدى المرات سأل الملك ابن الخراز: حدثني عن الموت يا كبير الموابذة.

فقال ابن الخراز: الموت أيها الملك أمر محتوم، وكل محتوم معلوم، وما هو معلوم إما أن نحتاط له، أو أن نتعامل معه بتجاهل لأنه أمر واقع، ولن تصنع الحيطة ما أهمله التجاهل يا مولاي.

ـ شاهبور: وماذا بعد الموت؟

ـ ابن الخراز: لقد مررت بحياتي يا مولاي على الكثير من الأموات، وشاهدت من يحرقونهم، ومن يدفنونهم، ومن

يقطعـونهم للجـوارح علـى رؤوس الجبـال، ومـن يرمـونهم بالأنهـار طعمـاً للأسمـاك، وكـل قـوم يـرون مـا يفعلونـه هـو الأصح، ولم يفكر أحد منهم بما يريده الميت.

ـ شاهبور: وماذا يتوجب على الميت أن يأخذه معه؟

ـ ابن الخراز: لقد لاحظت كل من مـاتوا يـا مـولاي أياديهم فارغة، فلم يأخذ الغني شيئاً من ماله، ولم يأخذ العالم شيئاً من علمه، ولم يأخذ صاحب الأولاد أحداً من أبنائه معه، كلهم تركوا ما كان عندهم وذهبوا، فمن مات ودفن كان القبر لا يتسع إلا لجسده فقط، ومن حرق كانت يده عارية تماماً، ومن أكلته الجوارح على رؤوس الجبال اكتفت بجسده ولم تأكل شيئاً من يده أو مما امتلكه بحياته.

شاهور: حدثني يا خسرو عن الحزن على من يموت.

ابن الخراز: لكل من يموت هناك من يحزن وهناك من يفرح، خاصة إن نال شيئاً من الشهرة أو العلم أو الصلاح، وما يبدو للناس هو الحزن ومن يحزنون، ولا يلتفت أحد إلى من يفرحون لموت أحد ما.

شاهبور: وهل هناك من يفرح لموت إنسان يا كبير الموابذة؟ أهناك فسحة للفرح بموت إنسان غير الأعداء؟

ابن الخراز: بالطبع يا مولاي، فالأعداء إن كانوا يحملون شرف العداء، تجدهم يقفون احتراماً للحظة الموت، حتى عند موت عدوهم، ولكن هناك من يفرحون ولا يعرفهم أحد عند عامة الناس، فمن كان لديه دين إلى ميت ولا يريد دفعه سيفرح بذلك، ومن كان لديه سر مع ميت، وكان يخاف على سره فلا شك بأنه سيفرح ولو قليلاً بأن سره أصبح بأمان بعد أن مات من يعرف سره، وربما تجد هناك من يفرح بأسباب الحب يا مولاي، فمن تحب رجلاً ستفرح لموت زوجته، ربما ستجد الفرصة للزواج منه، وهناك من يفرح لموت رجل يسبقه في تجارة ما أو منصب ما، فيرى أن موت رئيسه يتيح له فرصة التقدم للمنصب.

شاهبور ضاحكًا: هذا يعني أنك فرحت لموت كبير الموابذة، يبدو أنه لا يحزن على الميت إلا أولاده يا خسرو وأنا ليس لدي من يحزن علي.

ابن الخراز: ليس كل الأولاد يا مولاي، فمن عاش غنياً وكان بخيلاً أكثر من سيفرح لموته هم أولاده.

فقال شاهبور وعليه علامات الإعياء: يبدو أن الموت مفرح أكثر مما نظنه محزناً.

وبعد لحظة صمت دخل الملك في نوم عميق، فغادر ابن الخراز غرفته عائداً للمعبد.

بقي الملك على حالته التي تزداد سوءاً لشهور طويلة، فقرر ابن الخراز الإقامة بالقصر ليبقى بالقرب من الملك، وأعاد الرقطاء إلى القصر لتكون بقربه، وكان قريباً منها ومن الملك شاهبور المريض، وكان حبيبيان لا يكف عن البحث عن بقية السبايا العربيات، بعد أن شاهد الفرحة على وجه ابن الخراز وعلى وجوه النساء، فهو يدين بالكثير مما يملك لابن الخراز، وكانتا رند ومُره لايكفان عن البحث عن بقية السبايا من نساء مدينة الحضر، في منازل التجار والأعيان والأمراء، ومنزل سهراب الواسع كان كفيلاً بضمهن، فقد وجدوا ثلاث عشرة جارية عربية.

أعد ابن الخراز خطته للهروب من بلاد فارس، فبطن الرقطاء بدأ يكبر والشهور تمر والملك مريض وعلامات الحبل تثير بعض التساؤلات، فلم يشك أحد من نساء

وجواري الملك بأمر الرقطاء، وأصبحت بينهم السيدة التي ستتجب وريث العرش فزاد احترام الجميع لها، وكبير الموابذة ابن الخراز هو الآمر والناهي بالملكة، فطلب من حبيبيان أن يذهب بالنساء إلى مدينة الحضر وسيلحق بهم هو والرقطاء ومرة فيما بعد، نظراً لثقل حمل الرقطاء، حيث أصبحت في شهرها الثامن وكان السفر عليها شاقاً.

الفصل الثامن

وقبل أن يغادر حبيبيان المدينة، أمر كبير الموابذة بدق الأبواق في المدينة معلنة وفاة الملك شاهبور، وأعلن استنفار الجند وكانت مراسيم الجنازة التي أقيمت له مهيبة تليق بملك عظيم، وقد أشرف ابن الخراز على كل شيء حتى انتهاء مراسيم الوفاة، فاجتمع حكماء المدينة بدعوة من ابن الخراز كبير الموابذة وقادة الجند ليتدارسوا الأمر من بعد الملك، فأشار لهم ابن الخراز بوجود جارية تحمل ذرية الملك ففرح الجميع و توافقوا على أن يكون ما في بطنها ملكاً للبلاد حلاً لأي خلاف ومنعاً لطمع الطامعين بالملك، فتم إحضار الرقطاء وتم عقد التاج على رأسها لأنها حبلى بابن الملك، ولم يمض شهر حتى تمت الولادة لطفل جميل، فتم إحضاره بلفافة ووضع على تخت الملك الفيروزوج، ووضعوا التاج عليه فتمت تحيته بتحية الملوك وأوكلوا لكبير الموابذة مهمة تصريف شؤون المملكة إلى حين يكبر الملك، وأن يختار مساعديه ممن يثق بهم، وأن تعزل الرقطاء عن بقية النساء.

سافر السيد حبيبيان بالنساء العربيات إلى مدينة الحضر، وبقيت الجارية مُرة فقط منهن مرافقة للرقطاء، و وعده ابن الخراز بأن يلحق به بأسرع وقت، وحين دخل ابن الخراز على الرقطاء وأخبرها بسفر حبيبيان ومن معه، بكت الرقطاء بحرقة وطلبت منه الرحيل وترك هذه البلاد فأنشد لها:

فتاة للوفا عنوانْ

تقيمُ وليمةَ الأحزانْ

بكل هنينةٍ تبكي

وتبكي حولها الجدارنْ

هي الحزنُ الذي أوصى

عليها كاتبُ الإيمانْ

نعم ضحتْ بمن تهوى

لمن تهواه قبل الآنْ

لديها مجملُ الدنيا

وتنعمُ في أسى الحرمانْ

فاحتضنها وطلب منها التريث قليلاً إلى أن يجد الطريقة المثلى للعودة أو البقاء.

فقالت له: يا شهاب أريد أن يتربى ولدي بأرض العرب، وأن يعرف تاريخه وأن يحبه، لا أن يحب تاريخ غيره.

فقال لها: ما دمت أنت أمه، وأنت معه فلا خوف عليه أينما كان، وأنشد:

علمي ابنك أن لا ينحني

غير لله إذا ضاقت عليهْ

محنةُ الأقدار أو طاف به

حزن أيامٍ وضاعت من يديهْ

فرحةٌ كان يداريها فإن

تسقط الأفراحُ ترتدُّ إليهْ

علمي ابنك يا حبي فلن

يرفعَ الهامةَ إن هانت عليهْ

فقالت: يا شهاب أراك انشغلت بشؤون الملك والمملكة، وغفلت عن أصدقائك الذين يعلمون سرنا، لا أريد أن نقدم رؤوسنا قرباناً هنا، حين يفتضح أمرنا.

فكر ابن الخراز قليلاً وتغيرت ملامحه ودمعت عيناه فقال للجارية مُرة: سأعطيك شراباً واحرصي على أن يشربه السيد سهراب وزوجته رند أمامك.

فقالت مُرة: أهو ذات الشراب الذي أعطيتني إياه للسيدة زريجبور خانم؟

فقال لها: نعم ولتسامحني السماء.

فقالت الرقطاء: وما هو الشراب يا شهاب؟ ما هو الشراب يا مرة؟

لم تتكلم مرة، فأشار لها ابن الخراز بالانصراف، فذهبت دامعة.

فقالت الرقطاء: أراك فكرت بكل شيء يا شهاب، وكأنني أراك قد ألفت البقاء هنا، وما تحظى به من حظوة وجاه.

ابن الخراز: أي أرض ستكونين بها ستكون أرضي، أنا لم أعش إلا فترات محدودة في كل أرض، فلا الحضر مدينتك ولم تكن مدينتي أيتها الرقطاء، نحن أرض العرب، وأينما نكون تكون أرض العرب.

أي رحلة هذه التي حملت متشرداً من جزيرة العرب، ليكون نسله من يحكمون أحد أكبر إمبراطوريتين في العالم، وليصبح رجل في أوائل الثلاثين من عمره، و أواخر الخمسين من عمر الحكمة لديه، هو الآمر الناهي بطول البلاد وعرضها، هل هي الأقدار التي شاءت هذا القدر لولدٍ في لحظة ولادته لمع شهاب، فسماه والده "شهاب"، ولم تكن أمه إلا امرأة حرصت على إنقاذ رجل، كاد أن يضيع ببحثه عن أتان أو بغلة تحتمله، هل هي الأقدار التي حملته شرق الجزيرة وغربها، ليختار دينه الذي يريد والملك الذي يريد، بعد أن ساقت الحبيبة إلى ما تريد.

وهاهي الرقطاء أصبحت أم الملك فمن طفلة ولدت ببيت رجل من أغنياء جزيرة العرب إلى صبية تتحرش برجل أحبته وخلص في فناء البيت، وتعرفت على يديه بالملامسة أولاً، إلى متنسكة في كنيسة تقضي جل وقتها بالنحت والرسم، إلى جارية يسوقها الجند إلى قصر أكبر ملك في الشرق، إلى ملكة متوجة لطفل رضيع، أمامها الأيام لتنس كل هذا الجاه وتعود كما كانت تحلم بين ما تبقى من

قومها ، أو أن تضل لتكتب تاريخاً جديداً بدم عربي وخط فارسي.

وها هو الملك الطفل، فهل سيكبر بدم عربي ولسان فارسي، أم تكون له خيرة أخرى يقررانها عنه شهاب بن الحر بن سهيل كبير الموابذة خسرو، والرقطاء بنت سلمة بن غيث صافيناز، وبقي سره بين الرقطاء وابن الخراز والجارية مُرة، و...

رن جرس البيت انتبه الجميع إلى أن الساعة أصبحت الثامنة صباحاً.

فقال أبو شديد: من هذا الذي يزور زوجين في صباحهما الأول، التفتت حورية بازدراء وقالت: هذه أمي بلا شك، جاءت تطمئن على ابنتها في صباحيتها.

فتحت حورية الباب بعد أن عرفت أن والدتها بالخارج ودخلت أمها وأم أبو شديد فأخذاها بالأحضان والعناق وانصدمتا حينما شاهدتا أصدقاء أبو شديد.

فقالت والدة حورية: أليس لديكم إحساس، أليس لديكم تقدير؟ من يأتي لزيارة عروسين من الصباح الباكر؟

حاولت حورية إسكات والدتها بعد أن أدركت أنها غير مدركة بأنهم من ليلة البارحة لم يغادروا.

فقالت والدة أبو شديد: هؤلاء أصدقاء أبو شديد منذ الطفولة يا أم حورية، هدئي من روعك، ولا تشغلي بالك المهم أنهم بخير ومبسوطون.

فأمسكت حورية بيد والدتها وسحبتها إلى الغرفة وتبعتها أم أبو شديد، وبينما يتهيأ الجميع إلى المغادرة، علت زغردة والدة أبو شديد وأم حورية فرحتين، وخرجتا مبتسمتين فرحتين وتحمل أم حورية خرقة بيضاء وعليها آثار دم أحمر وتلوح بها وهي تقول لأبو شديد بيضت وجهي ربنا يبيض وجهك، وقالت أم أبو شديد مبروك يا ولدي، والله يرزقك الذرية الصالحة.

جحظت عينا أبو شديد وتلعثم، فقام الأصدقاء محاولين الخروج بسرعة.

فقال عبد الحميد: نراك على خير يا أبو شديد، فنظر إليه أبو شديد بنظرة المتسائل، دون أن يتكلم، وكأن بعينيه ألف سؤال، فقاموا تباعاً.

فقـال مولانـا لوالـدتي أبـو شـديد وحوريـة : اجلسـا مـع العروسـين نحـن ذاهبـون، والتفـت إلى أبـو شـديد وقـال لـه سـنأتي مـرة أخـرى لنسـتمع إلى بقيـة الروايـة، لقـد بقـي فصلان على ما أعتقد، إنها مشوقة بالفعل.

وتسـابق الأصدقاء إلى البـاب سـراعاً وهـم يتحـدثون معـاً، وسمعـت حوريـة مولانـا يقـول: عيـب والله هـذا، سـيموت الرجل.

فردت عليه حورية: مولانا! فسكت ولم يكمل جملته.

فقال حبيب: صراحة لا أعرف ماذا أقول...

فقالت حورية: يا حبيب! فسكت حبيب.

فقـال عبـد الحميـد: يـا شـباب لا خليتـو فيهـا منطـق ولا كتاب أزرق..

فقالت حورية: يا مثقف! فلم يكمل جملته.

فقال لطفي ضاحكاً: ابن الخراز اليوم خرزنا...

فقالت حورية: يا سياسي! فصمت لطفي.

وأبو شديد في حالة ذهـول ، ممسـك بالكتـاب بيـده وعينـاه شـاردتان، ألجمـه منظـر الخرقـة البيضـاء والـدم الأحمـر

عليها ، و وجه أمه المتهلل الباسم، و وجه أم حورية الممتلئ بالزهو والفرح.
و وجه حورية الخالي من أي تعبير.

(لم تكتمل الرواية)

الفهرس

ما لم يذكره المنطق في الكتاب الأزرق.................................5
الفصل الأول...21
الفصل الثاني..49
الفصل الثالث..85
الفصل الرابع..109
الفصل الخامس..111
الفصل السادس..142
الفصل السابع...170
الفصل الثامن...201